5307/51A

تاريخ
المسألة الشرقية

تأليف

حسين لبيب

أستاذ التاريخ بمدرسة القضاء الشرعي

نشرته

مجلة الهلال

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر

سنة ١٩٢١

مقدمة

شغلت مسائل الشرق الادنى اذهان الساسة وقراء الصحف واقلق محبي السلام ما شجر من الخلاف بين الترك واليونان مما دعا الفريقين الى امتشاق الحسام وبعثت المسئلة الشرقية من مرقدها فكان لا بد من كتاب يجمع بين دفتيه ـ ولو بهيئة مختصرة ـ تاريخ تطور تلك المشكلة الدولية الهامة من بدء نشأتها الى تاريخ تحرير هذه الاسطر وهذا ما نرجو ان نكون وفقنا اليه بعرض الصحف القليلة القادمة بين أيدي القراء الكرام

يونيو سنة ١٩٢١

كلمة عامة

في المسئلة الشرقية [1]

ما هي المسئلة الشرقية

«اذا ذكروا المسئلة الشرقية ارادوا بها حال المملكة العثمانية بالنظر الى مصالحهم او مطامعهم وقد يريدون بها الدردنيل خاصة وهو قلب المملكة العثمانية . وقد مضى قرنان وهم يختلقون الاسباب لتمزيقها ـ ليس لانها اسلامية وهم مسيحيون وانما يريدون الفتح والتغلب على دولة غريبة عنهم لغة وخلقاً وديناً وهم يرون فرقاً عظيما بين الغرب والشرق من كل وجه . فالغرب عنوان النشاط والحياة والعمل والشرق عنوان الهدوء والسكون والفاصل بين الامتين بحر الدردنيل ويعتقدون ان تلك الدولة تجاوزت الشيخوخة وآن انحلالها فكل دولة تطلب حقها من تلك الغنيمة ويتذرعون الى ذلك غالباً باسباب دينية فيزعمون أنهم يريدون حماية المسيحيين في الشرق او مقاصة بعض الحكام العثمانيين لانهم تعدوا على مصالحهم التجارية او نحو ذلك مما قد يكون صحيحاً في بعض الاحوال ولكنه ليس الغرض الحقيقي لذلك التحرش وانما هو استضعاف الدولة العثمانية والطمع ببلادها الخصبة . ولو رأوا حجة غير هذه لاحتجوا بها ـ فلما حمل بونابرت على مصر كان من جملة أسباب حملته حماية المسلمين !

«وقد تقلبت المسئلة الشرقية في اثناء هذا التمدن على اوجه كثيرة ولا سيما بعد حروب الدولة العثمانية مع روسيا وبما ان الدولة العثمانية اسلامية صار المفهوم من المسئلة الشرقية المسئلة الاسلامية وعند ذلك تدخل ايران في جملتها ولكن الاكثرين

---

(١) يراد بالمسئلة الشرقية بمعناها العام النزاع الذي دار بين الشرق والغرب في جميع العصور والادوار التاريخية فيشمل حملات الفرس واليونان وحروب الرومان والعرب والحروب الصليبية والنزاع بين المسلمين والاسبانيول ثم بين كل دولة من دول أوربا الحديثة ودول الشرق فيدخل فيه الخلاف بين تركيا ودول أوربا وبينهن وبين فارس والصين وكذا اختلافهن مع اليابان بسبب مطامعهن في الشرق الاقصى . على أن موضوع هذا الكتاب قاصر على المسألة الشرقية العثمانية أو التركية دون سواها

يريدون بها الدولة العثمانية خاصة . ولم يختلفوا في وجوب ازالتها وانما اختلفوا فيمن يتولى الزعامة في هذا النزاع ومن منهم ينال حصة الاسد من هذه الغنيمة وعندهم ان هذه المسألة لا تختص بامة من اممهم بل هي تهم اوربا برمتها - تهم روسيا لانها في طريقها الى البحر المتوسط وتهم انكلترة لانها معترضة بينها وبين املاكها في آسيا وتهم النمسا لانها عثرة في طريق مطامعها البلقانية وتهم فرنسا لرغبتها في مد تجارتها في افريقية وتهم سائر الدول بسبب ما بينها من التحالف . فكأن الدردنيل حلق اوربا والراية العثمانية حسكة في ذلك الحلق

« وعند التخصيص فانهم يعدون الدردنيل قلب الشرق او رأسه ولا تحل المسألة الشرقية الا باحتلاله والخلاف في من يحتله منهم

« وقد سعوا في حل هذه المسألة من وجوه كثيرة في جملتها اقتسام المملكة العثمانية فيما بينهم وقد وضعوا لذلك خرائط مختلفة لم يطل اختلافهم فيها وانما اختلفوا على الدردنيل وما يحدق به وهو حصة الاسد . واذا تدبرت ما دار بهذا الشأن وتأملت القرائن المحيطة بتاريخ هذه المسألة رأيت انكلترة أقل الدول رغبة في حل هذه الدولة وروسيا أشدها رغبة في حلها عملاً بوصية بطرس الاكبر الشهيرة » (١)

و « اتفق الكتاب والسياسيون على ان المسئلة الشرقية هي مسئلة النزاع القائم بين بعض دول اوربا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها وبعبارة اخرى هي مسئلة وجود الدولة العلية نفسها في اوربا . وقد قال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بان المسئلة الشرقية هي مسئلة النزاع المستمر بين النصرانية والاسلام أي مسئلة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بامر الاسلام وبين الدول المسيحية . الا ان هذا التعريف وان كان فيه شيء من الحقيقة فليس بصحيح تماماً لان الدول التي تنازع الدولة العلية وجودها لا تعاديها باسم الدين فقط بل في الغالب تعاديها طمعاً في نوال شيء من أملاكها . وقد ارانا التاريخ احوالا كثيرة لم يستعمل فيها الدين الا سلاحاً أو وسيلة لنوال غرض جوهري فهو ستار تختفي وراءه أغراض شتى وأطماع مختلفة. والذي يراجع تاريخ الدولة العلية ويقلب صحائف امورها من أول وجودها الى اليوم يرى أن المسئلة الشرقية نشأت مع الدولة نفسها اي أنه منذ وطئت أقدام الترك ثرى اوربا واسسوا دولتهم الفخمة قام بينهم وبين بعض الدول الاوربية النزاع

(١) المرحوم جرجي بك زيدان

الشديد ودارت الحروب العديدة . وبالجملة فانه منذ ظهرت صولة الترك في اوربا اخذت بعض الدول على عهدتها معاداة الدولة ومطاردتها والعمل على اخراجها من هاته القارة » (١)

و « ليست حقيقة المسئلة الشرقية البحث عن الوقت الذي يتقلص فيه ظل الاتراك عن آخر املاكهم في قارة أوربا وانما الحقيقة التي يبحث عنها هي من ذا الذي يخلفهم في القسطنطينية والبوسفور والدردنيل » (٢)

ولما كان ضعف الدولة العثمانية هو السبب في ظهور المسئلة الشرقية وتطورها وجب علينا أن نلم باسباب الضعف الماماً فنقول :

اسباب ضعف الدولة العثمانية

﴿ تمهيد ﴾ يضيق الكاتب ذرعاً اذا هو أراد استقصاء البحث في علل انحطاط الدولة العثمانية وتدهورها . وانما نقول الدولة العثمانية ولا نقول الامم العثمانية لان تلك الامم التي استظلت براية الهلال لا تزال على ما كانت عليه ولم يصبها وهن أو ضعف وهي عنصر قوي من العناصر الحية الخالدة الذي يبقى ولا يفنى وان أصاب دولته ضعف أو تولاها خمول . نعم لا يزال الترك والعرب والارمن والاكراد والتركمان وغيرهم على ما كانوا عليه تقريباً من صلابة العود وسمو الاخلاق الفاضلة وهم هم الألى بلغ بهم سليمان حدود العجم واسوار فينا ووصلت بهم الدولة الى المحيط الهندي والصحراء الكبرى . فالذي تغير وتبدل هو الدولة أو الكيان السياسي والاسم الجغرافي فاما العناصر المؤلف منها ذلك الكيان فعلى ما كانت عليه الا قليلاً بحسب ظروف الزمان والمكان وتأثير الاوساط والعوامل السياسية والاجتماعية

وانما يضيق الكاتب ذرعاً لان البحث أمر شاق . فعلل انحطاط الدولة مختلفة بين داخلية وخارجية واجتماعية وعمرانية وسياسية ودينية وجغرافية واقتصادية . وهذه الاسباب متداخلة لا ينفرد أحدها باضعاف قسم معين من بناء الدولة وليس تأثير كل سبب منها في ضعف الدولة كتأثير سبب آخر نوعاً وكمية كما أن القارىء يحسن به أن لا يتوهم أنه كان في مقدور أحد رفع كل هذه الاسباب . فمن أسباب الضعف ما كان قدراً مقدوراً تقضي به سنن الكون ونواميس الاجتماع ومن الاسباب

(١) المرحوم مصطفى كامل باشا (٢) المستر ديسي

ما جره العثمانيون على أنفسهم فكانوا كالباحث عن حتفه بظلفه

ويلاحظ في تاريخ انحطاط الدولة ثلاثة أمور :

(اولاً) ان جسم الدولة قد قوي على تحمل جميع الادواء التي انتابته من حروب وثورات وعبث حكام واختلال أحكام وتضافر أعداء وتراخي أصدقاء . فصدق فيها قول فؤاد باشا لنابليون الثالث يوم كان سفيراً في باريس « ان دولتنا أقوى دول الارض اذ تعاقب عليها قرنان ودول اوربا تهدم من بنائها الشاهق من الخارج ونحن نهدم من الداخل والبناء لا يزال قائماً »

(ثانياً) ان الانحطاط كان مستمراً منتظماً منذ عصر سليمان الى الآن ولا عبرة بتلك الفترات القصيرة التي كانت تنتعش فيها وتظهر بعض مجدها العسكري القديم لقيام بعض رجالها وسلاطينها آونة بعد أخرى يرتقون ويدعمون

(ثالثاً) ان بوادر الضعف وأسباب الانحطاط وان كانت ترجع الى عصر سليمان كما اشرنا الى ذلك فيما سبق الا أن الوهن لم يظهر على الدولة الا بعد مضي مدة من وفاة ذلك السلطان العظيم . نعم كانت الدولة أمام الانظار قوية شامخة البناء فتية في الظاهر مع أن عوامل الضعف وادواء الفناء تنخر فيها من الداخل فكان مثلها في ذلك مثل سليمان الحكيم وقد ظل بعد موته جالساً على عرشه متكئاً على عصاه وعليه ملابس العز والدولة وشارات الحكم والصولة والوحوش والطيور والانس والجن تتطلع اليه وقد ملأتها المهابة وأخذتها الروعة وهي تحسبه حياً قوياً ينشر الخوف والفزع فيمن حوله وما حوله حتى اذا أكلت الارضة عصاه التي كان يتكىء عليها وقعت جثته على الارض وعلمت الخلائق الحاضرة أنه فني وباد وكان من الهالكين وكانت قبل أن تأكل الارضة عصاه تحسبه حياً قوياً في حين انه كان ميتاً في صورة حي وفانياً في شكل قوي . واذ قد لاحظنا ما تقدم من الامور فانذكر على سبيل الاجمال عوامل ضعفها وهي قسمان عوامل داخلية وعوامل خارجية

١ ـ العوامل الداخلية

(ا) اختلاف الاديان والاجناس : دل التاريخ مع الاختبار ان حكم الاجناس المختلفة والقوميات المتباينة والملل العديدة وضبط النفوس بينها يحتاجان الى نشاط وحكمة يفوقان مثلهما في ادارة شؤون الدول الاخرى المؤلفة غالباً من عنصر واحد

ودين واحد. لان نفوذ الاتراك المستمد من القوة العسكرية والذي تحكموا به في رقاب كثير من الشعوب الاجنبية المختلفة في كل شيء لم يكن ليدوم طويلا الا بعناية خاصة باعداد الجيش لكل طارىء مفاجىء من جهة وبارضاء تلك الشعوب المختلفة والتوفيق بينها واكتساب احترامها للدولة من جهة اخرى

واعلم ان الفاتحين من آل عثمان اغفلوا بناء سلطتهم ونفوذهم على اوطد الاسس ولم يحملوا رعيتهم النصرانية المقهورة على الاسلام وانما اكتفوا منهم بدفع الجزية واستثمار الارض لهم. وجرى الحكام العثمانيون على سياسة شديدة الخطر على حياة الدولة وهي التسامح[١] المضر بمصلحة السيادة العثمانية ذلك التسامح الذي ادى بطول الزمن الى استقلال النصارى وخروجهم من احضان الدولة مع انهم كانوا متمسكين باهداب العمل وأسباب الارتقاء وسادتهم يحتقرونهم ولا يقيمون لهم وزناً. وكان من اكبر اسباب محافظتهم على قوميتهم وتولد الرغبة في الاستقلال والقدرة عليه أنهم كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي التام في الشؤون الدينية والادارية وللسادة الترك الاشراف الاعلى والجزية. واجتمعت لهم مزايا اخرى خلاف تلك الميزة الاساسية وذلك انه لم يكد يحل نصف القرن السابع عشر الميلادي حتى كف السلاطين عن أخذ اطفال النصارى للدخول في صفوف خدمة الدولة الحربيين والملكيين واخذت الدولة ترقي اليونان في اعلى مناصبها من غير ان تحملهم على تغيير جنسيتهم ودينهم. وكان الترك يفتخرون بان يلقوا على عاتق مواليهم من اليونان النصارى مهمة مخاطبات الدول والحكومات في الامور السياسية الخارجية وفي القاء مقاليد الحكم والادارة اليهم في بعض الولايات والعمالات التابعة لتركيا. في سنة ١٦٦٠ شرع الترك يكلون المفاوضات والامور السياسية الخارجية الى نصارى الاروام فكان هؤلاء تراجمة[٢] اسماً ولكنهم كانوا في الواقع وعلى الحقيقة بمثابة وزراء لوزارة الخارجية.

(١) معلوم أن سياسة التسامح التي جرى عليها سلاطين آل عثمان في عدم التعرض للغات الامم التي دخلت في حيازتهم كانت مع كل حسناتها سبباً في بقاء كل هذه الامم على غير تلاؤم واندماج واللغة التركية على كونها لغة الحكام كانت بحكم المجهول في بعض اجزاء السلطنة. والظاهر أنهم حاولوا بعض المحاولة تلافي ذلك التباعد اذ يروى عن السلطان سليم الاول انه على اثر فتح مصر ومبايعة المتوكل على الله العباسي له بالخلافة اراد ان يتخذ العربية لغة رسمية فلم يتسن له ذلك فلا ذاعت العربية ولا عمت التركية فبقيت كل امة منفردة بلغتها وليس لها ما يكفي من الالمام بلغة الدولة الحاكمة وحيث لا يحصل التفاهم لا يحكم الاندماج والتمازج

(٢) مثال ذلك ان احمد كبريلي عين من يدعى باناتيوتي ترجماناً للدولة كما أن يونانياً آخر

كذلك كانت الدولة تجعل منهم حكاماً على الافلاق والبغدان ولا شك ان جماً غفيراً من نصارى اليونان كان يلتف حول اولئك الذين يشغلون منصب التراجمة او الحكام من ابناء جلدتهم وهكذا نشأ بحي* الفنار من الاستانة على توالي الزمن نظام ارستقراطي عظيم من الاروام اعاد ذكرى ايام الدولة البيزنطية . وكان في هذا الحي الرومي مركز البطريرك او الزعيم الديني الذي أصبح مركزاً يلتف حوله الاروام وأصبح مقره بمثابة سراي الامبراطور البيزنطي القديم . ولا تسل عن مقدار المساعدات الثمينة التي امد بها بطريرك الفنار حركة الاستقلال اليوناني فانه بذل كل مرتخص وغال في سبيل نجاحها مادياً ومعنوياً (١)

وبذل اليونان كل جهد في جمع الثروة وحشد المال لعلمهم ان المال قوام الاعمال فاخذوا بزمام التجارة البحرية برضاء ساداتهم الترك وكان هؤلاء يرون في التجارة خسة وعاراً فتركوها لهم وتربعوا هم على كراسي الراحة والكسل والخمول مكتفين بالسيادة الواهية التي تزول في لمح البصر متى هبت عليها ريح النشاط والاجتهاد واتخذت الاهبة لزوالها والعدة لمناوئتها والتغلب عليها . وانت تعلم ان باليونان استعداداً فطرياً لركوب البحر والنجاح في التجارة . وساعدهم على الكسب والفلاح واتساع دائرة التجارة ان روسيا جعلتهم في حل من الدخول في رعويتها واستعمال راياتها وبنودها في سفائنهم وشملتهم في كل ثغر من ثغور الشرق الادنى بالرعاية والاكرام . وكذلك ادى امتناع ورود حاصلات اميركا الى اوربا بسبب حروب نابليون الى تزايد طلب التجارة عن طريق اليونان وثغور بحر الارخبيل فعظم الرزق لديهم وتوفر الخير عندهم. هذا الى ان الدولة العثمانية كانت تستخدم الاروام في سفائن أسطولها فلا بدع اذا خانوها وتألبوا عليها وخرجوا من خدمتها عند قيام اخوانهم يطلبون الاستقلال والانفصال . فانت ترى ان استقلال اليونان لم يكن الا بسبب تلك الاغلاط المتسلسلة

* يدعى ماقروكورداتو كان مندوباً عن تركيا في امضاء معاهدة كارلوفتس

(١) من احاديث نابليون الاول في سانت هيلانه عن سياسة الدول في الشرق الادنى قوله : « ان سلاطين العثمانيين قد ارتكبوا اعظم خطأ وجروا على اقبح سياسة تضر بمصلحتهم وتقوض دعائم نفوذهم وذلك انهم تركوا جماعة عظيمة من المسيحيين مثل اليونان في مكان واحد وجعلوا كفتهم العددية راجحة على كفة ساداتهم وانه لا بد ان يكون من وراء هذه السياسة اجتناء اشأم النتائج على العثمانيين مما يؤول الى تقلص ظلهم وافلات رعاياهم المسيحيين من قبضة يدهم عاجلا او آجلا »

التي جرت عليها الدولة فلا بدع اذا انكمشت رقعتها وتقاص ظلها ودبت فيها أدواء الضعف في كل مكان من جسمها (١)

(ب) شكل الحكومة : كانت الى عهد قريب جداً حكومة استبدادية من نوع الحكم المطلق حيث يقبض رجل واحد على أزمة الامور وهو الحكم الذي الفه العالم منذ نشأته وله بلا ريب مزايا باهرة مع جهل الرعية وذكاء الراعي وعدله. وكم لنا في العهد القديم من مثل برجل واحد نهض بامة كانت قبله خاملة ولكن كم لنا من جهة اخرى من مثل برجل واحد اضمحلت على يده أمم شتى وامته منها. فلو ان حكومة الترك كانت نوعاً من الحكم المطلق العادل في سائر العصور والادوار لكان يكون تأخر الدولة ممتنعاً أو بطيئاً جداً . أما وقد كانت بعد عصر سليمان من النوع الاستبدادي الجائر الذي يبيح الموبقات ويستبيح المحرمات ويحكم الانذال برقاب الرجال وينكس الرؤوس ويذلل النفوس من غير مرشد الا التعنت عن هوى يميل به النفس الى حيث لا تدري ومن غير شرع ومن غير وازع بل يحلل اليوم ما يحرمه غداً يصادر الاموال بغير حساب ويبطش بالابرياء بغير عقاب ويفرق بين الناس اذا آنس نقمة منهم عليه فيثير فيهم ثائرة التعصب الذميم فضرب بعضهم ببعض حتى اذا غفلوا عن مظالمه حيناً ثم استفاقوا من غفلتهم ورجعوا الى التظلم منه خلق لهم ملهاة أخرى يلتهون بها عنه وتقتسم به فئة ضئيلة أموال الامة فتنعم بها وتشقى الامة ولا حرج على تلك الفئة ولا جناح . فلا عجب اذا عجزت الامة العثمانية عن الجري في مضمار التقدم والارتقاء وسقطت في مهواة الفوضى والشقاء لان سلاطين آل عثمان الاولين بعد أن نهضوا بالدولة الى ذروة المجد بما أوتوه من الذكاء والحذق خلف من بعدهم خلف أضاع الاملاك الشاسعة التي نالها الاجداد بحد السيف وحافظوا على كيانها بحسن الادارة ولم يكن للسلاطين الضعفاء همّ الا الانغماس في اللذات غير مكترثين بتضعضع ملكهم . وكان استبداد السلاطين استبداداً قبيحاً جائراً

(١) من هذه الاغلاط ايضاً ان الحكومة العثمانية جعلت على اليونان بوليساً منهم يقال له اورماتول كان لا شك يغمض العين عن افعال عصاباتهم المسلحة التي كانت تهيء نفسها من زمان بعيد لتنظيم حركة الثورة والعصيان وطرح النير التركي من الاعناق . ومن هذه الاغلاط ايضاً ان الدولة العثمانية كانت تتمادى في التسامح او الاهمال حتى اذا سبق السيف العذل وفوّتت الفرصة أرسلت على اليونان قوة لتأديبهم فترتكب من ضروب القسوة ما يكسب اليونان عطف النصارى قاطبة عليهم

سببه غفلة الأمة وجهالتها وفساد بطائن السلاطين وحواشيهم وتقرب المداهنين المتملقين الذين لا يشق شغاف قلبهم الصلد عويل ايم ولا صراخ يتيم وهم حائلون بين الراعي والرعية وبايديهم سيف من النقمة مسلول على رؤوس الابرياء كما أن توارث العرش وتعاقب جلوس السلاطين عليه من غير مراعاة الكفاءة أو صوت الرأي العام مع سوء تأويل قوله تعالى « واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » وكذا تداخل الجند في عزل السلاطين وتوليتهم حسب ما يروق في عين طمعهم وجشعهم من الاسباب التي يعزى اليها جلوس سلاطين من الطراز الخامل الضعيف أو السكير المستهتر أو الخائف المتردد اوالفاسق المغرور. نعم لو كان سلاطين آل عثمان بعد القرن السادس عشر الميلادي من المستبدين العادلين أصحاب الحذق والتدبير والكياسة والشجاعة والرأي الماضي ممن يسيرون باوامر الله وسنة رسوله الكريم لكان التاريخ العثماني الان على خلاف ما هو عليه لان السلطان في بلاد الشرق والاسلام هو الكل في الكل هو الدولة والدولة هو ، هو الرأس ان فسد فسد الجسم وان صلح صلح البدن . ولو ان العثمانيين كانوا يختارون سلطانهم اختياراً ويقدمون الاكفاء من أمراء البيت العثماني لما شكوا ضعفاً وتأخراً واضمحلالاً . وكيف كان يمكن ان يستقيم الحال وقد كانت عادة السلاطين في الزمن السابق قتل اخوتهم ومن عساهم ينازعون اولادهم وراثة العرش ثم كفوا عن القتل وأخذوا يحبسونهم ويحجرون عليهم ففي الحالة الاولى يعدم ذكاء ويقبر عزم وحزم ما كان أجدره بالنهوض بالدولة الى العلياء والبلوغ بها أعلى درجات سلم الارتقاء وفي الحالة الثانية يحجب الامراء عن العالم فلا يكون لهم علم او تجربة فاذا صاروا سلاطين كانوا أشباحاً لا تعقل ولا تفقه شيئاً من فنون الحكم وأساليب الادارة ويصبحون تحت رحمة امرأة ذكية من نساء القصر أو خصي ماكر او وزير لئيم غادر . هذا ومما تنبغي الاشارة اليه ان الشريعة الاسلامية لم تذكر جزئيات النظام الحكومي الذي يسير عليه المسلمون وفي القرآن اشارات عامة في حقوق وواجبات الامام وحقوق وواجبات الرعية وقد تركت للناس حرية اختيار الانظمة التي تروقهم تبعاً لظروف الزمان والمكان.واستفاد سلاطين آل عثمان من جهل الرعية وغفلتها عن المطالبة بحقوقها التي بيّنها الكتاب الكريم فجعلوا يعبثون بالناس ويشرعون النظم التي تحفظ لهم نعمة الحكم وتستبقي لهم لذائذ الاستبداد . وكان من جملة ذلك حفظ حق الحكم لافراد اسرة معينة هي

اسرتهم من غير نظر الى الكفاءة دائماً كما قدمنا . ولما فتح السلطان سليم مصر وارغم الخليفة العباسي على التنازل له عن الخلافة الاسلامية زاد نفوذ البيت العثماني وقويت شوكته واكتسب روعة دينية واحتراماً قدسياً جعل مناقشته الحساب من الامور المتعذرة او النادرة فاوغل في الظلم حتى وصل الى حالة نفسانية كان يشعر معها بمثل ذلك الحق السماوي الذي كان يتمسك به ملوك انكلترة من آل استوارت

وقد جر جور السلاطين واستبدادهم بالامر سلسلة جرائم وسيئات كان لها الاثر الفعال في انكماش الدولة وانحطاط السلطنة ومن تلك الجرائم والسيئات أو العيوب والمخازي ما يأتي :

١ ان السلاطين كانوا يجرون على خطة الاسراف والتبذير فينفقون النفقات الطائلة ويقيمون القصور الباذخة ويركبون الخيول المطهمة والمركبات الفاخرة ويحشدون في مساكنهم جيشاً جراراً من الخدم والاماء والعبيد والخصيان من ذوي المخصصات العظيمة والرواتب الضخمة وكانوا لا يتركون وسيلة من وسائل البذخ والترف في مآكلهم ومشاربهم ومجالسهم ومنتدياتهم ومنتزهاتهم وظعنهم واقامتهم ولهوهم ولعبهم الا اتخذوها بما عجزت عن القيام به ايرادات الدولة

٢ انهم كانوا يسندون وظائف الدولة المهمة الى رجال احسنوا صناعة التملق والمداهنة لاشخاص السلاطين او كانوا مقربين من محاظيهم ونسائهم . أليس من أعجب العجب أن السلطان سليمان نفسه رضخ لارادة احدى نسائه وقتل ولديه مصطفى وبايزيد ارضاءً لها فآل الملك الى ولدها سليم وهو فاتحة شقاء العثمانيين . فاذا كانت ولاية العهد على جلالة قدرها وعظيم أهميتها يتصرف فيها السلاطين هذا التصرف المعيب فاحرى بما دونها من الوظائف ان يكون وقفاً على الرشوة والمحسوبية

٣ ان السلاطين حسبوا امتهم جيشاً ودولتهم معسكراً فلما أفلح منهم من أفلح في صناعة الحرب وفتحوا ما شاءوا من الاقاليم والبقاع أخلدوا الى الدعة والسكينة وانكمشوا في زوايا الكسل والملذات فصاروا فريسة الترف وما علموا ان الفتوحات السلمية ابقى من الفتوحات الحربية وان حسن الادارة وتنظيم المرافق عليه المعول في بقاء الدول . وانك لترى سلاطين العثمانيين بعد سليمان القانوني ـ الا قليلاً منهم ـ يدخلون في غمار الحروب ويعودون منها بالخسران المبين والخذلان المشين لا الى ديوان الحكومة حيث يدعمون بالاصلاحات السلمية ما خربته الحروب الخاسرة

بل الى مجالس الندماء وأحضان النساء

على ان الانصاف يقضي علينا بان نقول ان العالم كله من أقدم ازمنة التاريخ الى سنة حدوث الثورة الفرنسية الكبرى كان فريسة استبداد الملوك والامراء والسلاطين في آسيا واوربا وافريقية وكانت تلك الثورة الدموية العظيمة بمثابة زلزال عظيم قوض النظم السياسية والاجتماعية التي جرى عليها البشر من قديم الزمان ونسج الشعب العثماني في السنين الاخيرة على منوال الشعب الفرنسي وتعلم منه فكان من جراء ذلك الانقلاب الدستوري الاخير في الدولة التركية . فاسرة عثمان لم تنفرد في تاريخ العالم بالاستبداد ولم يكن الشعب العثماني هو الشعب الفذ الذي ذاق مرارة الاضطهاد وغضاضة الاستعباد والملوك مهما كان من سمو تعاليم دينهم لايقلعون عن حب الاستئثار بالسلطة والانفراد بالحكم المطلق الا اذا زلزلت قوة الشعوب أقدامهم وحملتهم على تحقيق مبادىء الاسلام أو تطبيق نظريات الفلاسفة الاعلام

ونكاد نخرج عن موضوع البحث اذا نحن اسهبنا في بيان التأثير السيء الذي يحدثه استبداد السلطان وجوره في اخلاق حاشيته خاصة والامة عامة . فالخوف والنفاق وحب ظلم الضعفاء كالمرأة والرقيق والتملق والكذب والخيانة وحب النساء والخمر والميسر (والناس على دين ملوكهم) كل ذلك من النتائج التي ينتجها الاستبداد الغاشم . ومن أراد المزيد من هذا البحث فليقرأ كتاب السيد عبد الرحمن الكواكبي في «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » أنما يكفي هنا أن نقول ان انحطاط الاخلاق يقعد بالامة عن القيام باي عمل صالح

(ج) اهمال المرافق الاقتصادية : « كانت الدولة العثمانية الى وقت قريب بصرف النظر عن كل ما انفصل عنها لا تزال قابضة على صفوة خالصة من قارات اسيا واوربا وافريقيا ومساحتها عدا الولايات الممتازة مليوناً و ١٥٦ الف ميل مربع فاذا ضممت مساحة فرنسا الى مساحة المانيا الى مساحة انكلترة الى مساحة ايطاليا بلغ مجموع اتساع هذه الدول الاربع مجتمعات ٦٣٨٣٥٣ ميلامربعاً اي ببعض زيادة على مساحة نصف السلطنة العثمانية .» فماذا كانت موارد الثروة الزراعية فيها ؟ الجواب على هذا السؤال يؤخذ من البحث في احوال العراق مثلا «فهو اقليم يشمل بلاد مابين النهرين ويمتد مما يلي ديار بكر جنوباً الى خليج العجم شمالاً ومن حدود بلاد ايران شرقاً الى حدود سوريا غرباً ويشمل ولايات الموصل وبغداد والبصرة وقسماً من ولاية ديار

بكر ويزيد عن فرنسا في مساحته ولا يفوقه في خصب تربته اقليم من اقاليم العالم كله يخترقه دجلة والفرات والزاب الاعلى والزاب الادنى وديالة وفيه شط العرب ملتقى الانهر وهو بحر فياض يغني بمده وجزره عن وسائل الارواء . العراق اقليم قامت فيه بعواصمها أعظم دول العالم القديم من البابليين الى الاشوريين الى السلوقيين خلفاء الاسكندر الى الفرس الى فخر دول الاسلام الدولة العباسية بل هو القطر الذي آثره محمد علي باشا الكبير على مصر وما والاها ووقف هيرودوتس ابو التاريخ واجماً عن وصف تربته وخصبه خوف ان تنسب اليه المغالاة والكذب مهما خفف من الاطراء . هذا قطر مون سكان بابل القديمة البالغ عددهم ٢٥ مليوناً وفاض خيره عنهم فاصدروا حاصلاته مشحونة الى سائر البلاد وهو القطر الذي كان سواده أعظم موارد الثروة في الدولة العباسية التي ملكت اخصب البلاد وسادت أوسع الاقاليم . هذا اقليم تبددت سكانه وبارت أراضيه وان كانت لا تزال خصبة وفيرة المياه . وانما بارت اراضيه وقلت خيراته وهجرته سكانه لان سياسة الدولة العثمانية انصرفت عن نشر الامن وافشاء العدالة واحكام وسائل السقي وتمهيد طرق النقل واغراء الفلاحين بتعمير البلاد . نعم عجز العثمانيون عن اقتفاء أثر اهل بابل واشور والفرس والمتقدمين من الخلفاء العباسيين اذ قد توفرت الادلة الاثرية والتاريخية على أحكام أصول السقي والري وطرقه في بلاد العراق منذ القدم . وهذه آثار النهروان وسدوده وترعه تشير اشارة واضحة الى أنه كانت هناك مستودعات للمياه شبيهة بخزانات مصر تعاقب على انشائها من ذكرنا من الدول والشعوب السابقة كما أن الترعة العظيمة البادية آثارها في صحراء قاحلة من السماوة الى ما بين البصرة والزبير الى خليج فارس والمعروفة الآن بنهر عمر من أعمال بعض الخلفاء العباسيين . وقد أهملت الحكومة العثمانية حتى زراعة الاراضي الخصبة بطبيعتها. قال أحد السياح : كان من الواجب مع هذا الخصب الغريب أن لا يهمل في تلك البقاع شبر بوراً ولكن الواقع بخلاف ذلك فاذا صعدت في شط العرب من مصبه عند الفاو الى البصرة ومنها الى القرنة عند ملتقى الفرات ودجلة على مسافة تقرب من المائتي كيلومتر ورأيت جنان النخيل الباسقة متراصة على اكثر تلك المسافة من على كلتا الضفتين ولم تصعد الى دكة قبة الربان على ظهر الباخرة لترى ما وراء تلك الرياض خيل لك أنك في بلاد عامرة آهلة بالسكان . ولكن لو وقفت بك الباخرة على أحد الصوبية ونزلت منها متوغلا

بين تلك الجنائن علمت أن نظرك قد خدعك وأن العمار في اكثر تلك الاراضي لا يتجاوز الجرف الى أبعد من ميل الى ميلين وانك في بعض المواضع ترى الارض البور متصلة حتى الى ثغر النهر

« وما أعظم ما تكون دهشتك اذا علمت بعد ذلك أن جميع تلك الارض في غنى عن كل وسائل العلم والاختراع لخزن الماء لاروائها اذ يتناوب المد والجزر مرتين كل يوم وليلة في خليج العجم فيتف ساعة المد في وجه مجرى المياه العذبة تنقلب على عقبها مرتفعة فتملأ الترع والانهر المحفورة بين تلك الارض فترويها بلا نفقة ولا عناء على طول المسافة الى القرنة ولا تقف هناك بل تتجاوز شط العرب الى مجرى كل من الفرات ودجلة على مسافة أميال

« فالارض التي تتناول الماء بتلك السهولة لا يبقى على صاحبها الا أن يفتح لها مجرى تسير فيه مهما طال واتسع ومع ذلك فهي على ما ذكرنا من ضيق النطاق وذهاب فائدة كل ما وراءه

« فاذا كانت تلك حالة الارض الغنية عن يد الصناعة لسقيها والحيطة بعثر ولاية ليضمن حفظ الامن فيها فما تكون حالة ما سواها مما يحتاج الى خزن الماء أو مما توارى عن نظر الحكومة في الاطراف

« ومساحة أراضي العراق ١٢ مليون فدان أي أنها مضاعف الاراضي الزراعية في القطر المصري لكن تسعة ملايين فدان منها أمست قفراً قاحلة ومليوني فدان ونصف مليون صارت مستنقعات وما بقي وهو نصف مليون فدان لا يزال يزرع اشجاراً وحبوباً مختلفة . والمطر قليل هناك لا يزيد متوسطه على عشرين سنتيمتراً في السنة والبلاد حارة فيتوقف خصبها على ما يمكن أن تروى به من نهريها الفرات ودجلة وهما كبيران جداً يبلغ ما يجري في الفرات زمن الفيضان ٤٠٠٠ متر مكعب في الثانية وفي دجلة ٦٠٠٠ متر مكعب وما يجري في كل منهما زمن التحاريق ٣٠٠ متر مكعب في الثانية من الزمان

«وقد فطنت الحكومة العثمانية أخيراً الى أهمية الزراعة في العراق واقنعها السير وليم ولككس المهندس المشهور بضرورة القيام بهذه الاعمال التي بها يصلح الري وتزيد مساحة الاراضي الزراعية فاجابته الى بناء سد كبير من رأس ترعة الهندية الآخذة من الفرات لتحويل مياهه كلها الى مجراها الطبيعي القديم بدلاً من جريانها

في الترعة الهندية حيث غمرت المياه جانباً كبيراً من الاراضي التي هناك فصار في الامكان رفع منسوب الماء في الفرات بواسطة هذه القناطر والحاجز الذي أمامها في فصل الصيف (ايام التحاريق) الى ست عشرة قدماً وست بوصات فتيسر بذلك ارواء بقاع كبيرة من أخصب الاراضي وأغناها تربة فتزهو بالزرع وتحفل بالضرع بعد ما اقفرت منها قروناً كثيرة » (عن المقتطف وسليمان البستاني)

ولم يقتصر اهمال الزراعة على العراق بل تعداه الى فلسطين والشام وآسيا الصغرى فكم من نهر ذهب ماؤه هدراً الى بحر أو بحيرة وكم من أرض لا تعوزها الا الايادي العاملة وكم من اقليم بقليل من العناية يكاد يدر لبناً وعسلا

والخيرات المعدنية على كثرتها وتنوعها في بلاد الدولة اهمل أمرها اهمالاً شائناً لا يكاد يفوقه الا اهمال شأن الزراعة . فالفحم الحجري وهو من أعظم أركان الثروة موجود في قسمي اوربا واسيا مما بذلت بعض الهمة في استخراجه كمعادن هركلي ومما لايزال مهملا كمناجم مندلي في ولاية بغداد ومعادن الكروم والرصاص الفضي تستخرج بقلة من الولايات الاوربية ومثلها معادن الحمر في الاراضي السنية بسوريا والنحاس في ارغني بولاية ديار بكر وفي مواضع كثيرة معادن ظاهرة وتوشك أن تكون مهملة كل الاهمال ومنها الذهب والفضة والانتيمون والزرنيخ والسنباذج والزئبق والمغنيس والحديد والقار الحجري والسائل والكبريت والبورق ومقالع الرخام على اختلاف أنواعه والبترول بضواحي الاسكندرونة وولاية بغداد والموصل فضلاً عن المياه المعدنية الحارة والباردة والملاحات البرية والبحرية والحراج والغابات التي باد معظمها والباقي منها في قسطموني وكيليكيا يفوق مثيله في اوربا

ولم تكن الصناعة باحسن حالاً من الزراعة ولم تعن بها الحكومة العثمانية العناية اللائقة بها مع ان في بلاد الدولة منشأ كثير من الصناعات القديمة التي بادت كصناعة الزجاج والقرمز في فينيقيا والنحت والحفر وصناعة التماثيل في جزر الارخبيل والرسم وما لحق به من نتاج الفنون الجميلة في القسطنطينية وما والاها من البلاد . وكان آخر هذه الصناعات عهداً بالاضمحلال صناعة القاشاني البديعة في دمشق الشام ومع وجود كثير من الصناعات الخاصة ببعض البلاد فلا يصدر من المصنوعات العثمانية الى اوربا غير السجاجيد من ازمير والكهرباء من الاستانة والصدف المنقوش من بيت لحم .

وأعجب من العجب ان في اوربا مصنوعات كثيرة مما لا يستعمل فيها وأنما يصنع فيها

ليرسل الى بلاد السلطنة العثمانية كزجاج التراجيل والطرابيش وربما أخذت مادة المصنوعات من بلاد الدولة وأدخلت معامل اوربا وعادت منها الى بلاد الدولة مصنوعة وثمنها أضعاف مضاعفة وسبب هذا جهل الناس وفساد سياسة الحكومة السابقة التي لم تنهض بالصناعة قليلاً أوكثيراً مع وجود مواد الصناعة ومعداتها متوفرة ووجود العامل الحاذق النشيط والفحم الحجري ومنتجات القوة المتفرقة في انحاء البلاد من منحدرات الانهار الكبيرة الى شلالات الانهار الصغيرة التي تولد الكهرباء بقوة الوف الاحصنة ومع وجود أحسن المواد اللازمة لمعامل الحديد والخشب والزجاج حتى بناء السفن هذا فضلاً عن الحرير والصوف والقطن والكتان والمعادن

وقد كان من المنتظر ان يكون للتجارة في البلاد العثمانية شأن اعظم من شأنها لموقع السلطنة في ملتقى قارات العالم القديم الثلاث وبما لها من الثغور والمرافىء الكثيرة على سواحلها الطويلة المشرفة على أهم واعظم بحار العالم وبما لسكانها من يونان وشوام وعرب من الشهرة التجارية القوية والحذق المالي الموروث وما فيهم من حب السفر والمخاطرة وما في البلاد من خيرات معدنية وزراعية. ولكن ابى الكسل أو الاهمال الا أن يلفح التجارة بريحه السامة فذوى غصنها ويبس عودها لفساد طرق المواصلات ووعورة السبل وفقدان الامن وانتشار الظلم وقلة السفن التي تمخر الانهار وتعبر البحار مما يكون ملكاً للوطنيين. هذا الى قلة السكك الحديدية التي عليها مدار الثروة وقوام العمران

ولو كانت الحكومة العثمانية نشطت الى ربط البلاد بالسكك الحديدية الكثيرة لخففت وطأة الكساد الذي غشا بلادها بانشاء قناة السويس وتحويل تجارة أوربا الى مصر والبحر الاحمر ولامكنها نقل الحاصلات الزراعية الزائدة من جوف السلطنة الى ثغورها وبيعها والانتفاع بثمنها بل لامكنها اسعاف البلاد المنكوبة بالمجاعة بالاقوات على جناح السرعة. لو أن الحكومة العثمانية غطت بلادها بشبكة من السكك الحديدية لاوقفت تيار المهاجرة بنشر أسباب اليسر والثراء بين الناس (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون)

(د) التأخر العلمي : عمدة الدول في ارتقاء سلم العلياء العلم . هو السلاح الذي عليه المعول في التفوق على الاقران ومغالبة الزمان . ما هيض جناح امة خفقت على

ربوعها راية العلم وما تبثّ شعب اتخذ العرفان متكأ . بالعلم ركب الناس متون الهواء وبقروا بطن الارض وغاصوا لجة الماء فانكشفت لهم خيرات وبانت لهم كنوز سخروها في منافعهم واستخدموها على طرائق شتى . بالعلم صار الانسان مخلوقاً مخيفاً وكائناً رهيباً لا يكاد يعترضه في سبيل امانيه عارض . ماذا أصاب العثمانيون من العلم ؟ شيء قليل دون ما يرتجي الصديق ويكبت العدو . لو انهم أصابوا منه حظاً وافراً لكانوا شعباً عزيزاً فوق دس الدساسين وكيد الاعداء . اذن لكان لحمهم مراً لا يزدرد . وعودهم صلباً لا يهصر . لو كان العلم حاضر أمرهم في حروبهم لجمل من حميتهم وبسالتهم وشجاعتهم الفطرية قوة لا تقهر ولو خرجت اوربا كلها للقائها . ولو انهم اهتدوا بهديه في فترات السلم لوحد الغايات والف بين القلوب وحمل الناس على المضي متحدين في طريق كل عمل صالح . اذن لما رأيت العثمانيين جميعاً وقلوبهم شتى . اذن لكان سير الحوادث البشرية في غير مجراها الحالي

غير ان المستبد يستمرىء جهالة الرعية . لا يريد للناس علماً به يتذوقون طعم الحرية ويتشككون في صواب بقائهم على الخضوع له طويلاً ثم يسمون اليه يقلقون راحته ويناقشونه الحساب . اسمع ما يقوله رجل من اخلص العثمانيين العرب عن التعليم في بلاد الدولة « اختلت بشدة المراقبة فابعد منها كثير من المطالب المفيدة ابعاد المنفيين الى فزان حتى لقد حرم على الطلبة درس المهم في التاريخ ولو كان تاريخ بلادهم وشوهت جغرافية البلاد العثمانية وخرائطها فحذف وبدل منها من الاسماء ما طالما افتخر سلاطين آل عثمان بدخوله في حيازتهم وحظر تعليم بل قراءة العلوم الفلسفية والاجتماعية ومنع الاساتذة من القاء أي شرح مفيد على الطلبة حتى حار المعلمون في أمرهم وكانوا وهم يلقون حتى ولو مسألة نحوية اوحسابية صرفاً يخشون أن توجس منهم اشارة الى عدد يوافق اعداد سني الظلم أو فتحة او كسرة تشيران الى فتح الاعين وكسر القيود كل ذلك خشية من أن ينبثق نور العلم في أدمغة التلامذة فيعلمون انهم من بني الانسان وأن لامتهم حقوقاً تجب المطالبة بها »

واعتبر قوله في المدارس الوطنية والمدارس الاجنبية :

« بقي لنا كلمة في المدارس الوطنية والمدارس الاجنبية . أما الاولى فنعني بها التي شادها اهل البلاد فهي قليلة لم يكن يرجى منها النفع المقصود مع شدة اعتناء اصحابها بها لان اكثرها تحت أحكام هذه المراقبة الجائرة . وأما المدارس الاجنبية فهي التي

كانت متمتعة بحرية حرمت على ما سواها ولقد تهافت عليها الطلاب من كل الملل والنحل تهافت الظمآن على الماء الزلال وبثت نور العرفان بين جمهور عظيم من فتياننا ولكن مع اعترافنا بجزيل ما تقفت وأفادت لا يسعنا الا القول جهاراً أن فيها ثلمة متسعة لا يمكن سدها الا بتغيير الاحكام . فمن من أرباب تلك المدارس على فضله يهتم ببث روح الوطنية بين تلامذته بل من منهم وهم منتمون لامم متناظرة لا يسعى جهد طاقته في استمالة تلامذته الى امته ودولته وهكذا نشأ الطلاب على اختلاف في الافكار والمذاهب وهكذا عمل الاجانب بطريق العلم على اقتسام عقولنا كما عملوا بطريق السياسة على اقتسام بلادنا » . ووصف المرحوم ولي الدين بك يكن في الجزء الاول من كتاب المعلوم والمجهول عمل مجلس المعارف الاعلى بالاستانة وكان قد تعين فيه عضواً :

« وبينا نحن كذلك اذ دخل علينا رجل قيل لي انه أحد كتاب قلم المجلس قد زرر سترته ادباً وأمسك اوراقه بيديه وتقدم حتى قارب مكتبة صغيرة هي على يسار الرئيس فوضع عليها الاوراق ووقف ينتظر الامر فقال راسخ افندي « الآن يقرأ الكاتب علينا ما ينبغي أن ننظر فيه من الاوراق فاذا انتهى من تلاوتها أبان كل منا عما يرى فاذا رآها على ما يجب وافق عليها واذا رأى موضعاً للاعتراض اعترض . » فتناول الكاتب ورقة تلاها بصوت عال وانا اسمعه وأتأمل حال الاعضاء فرأيت واحداً يسر لمن هو جالس الى جانبه حديثاً وآخر يكتب كتاباً وثالثاً يأكل الحمص ورابعاً اثقل النعاس هامته وخامساً يقرأ جريدة في يده واذا كلهم كما قال الحسن ابن هانيء

كأن ارؤسهم والنوم واضعها على المناكب لم تخلق باعناق

فهالني ما رأيت حتى خيل اليَّ أني بين جماعة من ابناء السبيل نزلوا بدار مطعم وأقاموا ينتظرون غذاءهم واستمعت ما يتلو الكاتب فاذا هو استئذان من النظارة بصرف مائة وعشرين قرشاً لاصلاح أنابيب المياه في مدرسة من مدارس البنات لا يحضرني اسمها فلما انتهى الكاتب من التلاوة وشرح الرئيس للاعضاء مجمل ما تلاه قال أحدهم — فليكن

آخر — لا . لا يكون أبداً

ثالث — ولم لا يكون

رابع — نعم صدق فلان . هذا لا يكون أبداً

خامس ـ أنت لا تدري من هذه الامور شيئاً . تكلم فيما تدريه ولا تشغلنا بهذرك هذا

سادس ـ أرجو ان لا يطول هذا الجدال والا اضطررنا الى الدخول معكم فيما لا نريد

الرئيس ـ كفى كفى. يظهر لي انكم توافقون كلكم على صرف العشرين والمائة قرش

الجميع وفيهم المخالفون ـ نعم نعم كلنا نوافق

فوالله ما رأيت مشهداً هو أنفى لصبر وأجلب لضحك مما رأته عيناي فيالك من مبرك ابل انا احد أزواده . فعاودني هنالك شيطاني ونفخ في أذني نفخته فقلت لمعمم كان باركاً الى جانبي

ـ ما قدر ميزانية المعارف

ـ لا أدري

ـ كيف لا تدري ثم توافق على احتساب مبلغ منها

ـ وما يعنينا نحن من ذلك. لينظر في الامر من هم فوقنا. وماجيء بنا هنا لنحاسب الناس على كل ما يقولون . انا أحب أن لا أتعدى ما رسم لي . وأنت جئت اليوم فلا تدري من اعمال المعارف شيئاً فاولى لك أن لا تعجل في الرأي وان لا تكشف مقاتلك لحاسديك

قلت وهذه فائدة استفدتها وقد ذهبت هيبة المجلس من عيني وايقنت ان هذا البناء الذي يظل رجال العلم في الامبراطورية العثمانيـة لا يؤاوي الا اناساً هم نخبة جهلائها فاشفقت على وطني وتمنيت ان لا اعيش حتى أشهد مصرعه »

(هـ) ضعف الجيش والاسطول : قضت سنة الكون ونواميس الاجتماع ان يكون الغلب والبقاء للاصلح سواء أكان نباتاً أو حيواناً أو انساناً أو حكومة أو دولة أو نظاماً اجتماعياً أو تشريعياً . القوي يبقى والضعيف المجرد عن وسائل المقاومة يبيد ويتلاشى . عرف الناس من قديم الزمان وسالف الحقب ان بعضهم طامع في البعض الآخر وانه لا بد من سلاح به يدفع عدوان القوي ويؤخذ ما بايدي الضعيف فاستحدثوا نظام الجيش وجعلوه عدة لدفع الاعداء واستكثار الرزق بفتح الاقاليم وغزو الامصار

وكانت الدولة العثمانية أول دولة عرفها التاريخ الحديث اقامت جيشاً عظيماً فرت

به في احشاء البلاد وفتحت به من الاقاليم ما اشتهت وطاب لها . نعم كان جيش الانكشارية وما لحق به مخلب الدولة ونابها وحارسها وسياجها . كان ذلك ايام كان الاخلاص رائده وعز الدولة غايته ورفعة الدين والملة مقصده ومطلبه ورضاء السلطان والعبودية له أمنيته. فلما اتسعت رقعة الفتوحات واترعت خزائن الدولة بالمال واصاب العثمانيون عزاً وجاهاً ودانت لهم اخصب الاقاليم واغنى البقاع تاه الانكشارية في بيداء الغرور والكبرياء وعلموا انهم أصل الصولة وأصحاب الدولة وبناة المجد ورافعو لواء السؤدد فتدخلوا فيما لم يكن لهم فيه شأن وصاروا يعزلون السلطان ويولون غيره حسب أهوائهم واذا كان السلطان من صنائعهم فاولى بمن دونه رتبة ومن هم أقل منه درجة من رجال الدولة وعمال الحكومة ان يعنوا لهم ويخافوا بطشهم وانك لتجد تاريخ الدولة العثمانية من عهد سليمان وقبل سليمان الى عهد قريب تاريخ حكومة اعجزها غرور الجندية وارهقها عناد العسكرية حتى اذا بلغ السيل الزبى ولم يطق الناس صبراً اتيح للسلطان محمود الثاني ان يستأصل شأفتهم ويقطع دابرهم على نحو ما تراه مبسوطاً في غير هذا المكان من كتابنا هذا

على أن السلطان محموداً كان في زمن قد كثرت فيه الاحن والمحن وكشرت له النوائب عن نابها من كل جانب فقد ثار اليونان وتمردوا وشقوا عصا الطاعة وطمع فيه ولاة من صنيعته وخرجوا عليه وارادوا الاستبداد بما تحت ايديهم من الامصار والاقاليم وظهرت مذاهب دينية وفرق وشيع وبدت أهواء ومطامع وهبت بسفينة الدولة اعاصير وزعازع وهي في بحر خضم من الفوضى والاضطراب فكانت الحاجة ماسة الى جيش قوي يعيد الامن الى نصابه ويستنزل العصاة من معاقلهم ويرد كيد الثائرين في نحرهم وهذا ما لم تجد به الاقدار على السلطان محمود فقد اباد الانكشارية ولكنه لم يجد بدلهم قوة ذات بال يعتمد عليها . وقيض للسلطان عبد المجيد ووزيره الامير رشيد باشا ان يرفعا بناء الجيش الحديث الذي وضع السلطانان سليم الثالث الشهيد ومحمود الثاني المصلح قواعده على النمط الاوربي الحديث وتابعهما في ذلك السلطان عبد الحميد الثاني الذي استعان بصداقة الامبراطور وليم الثاني على ادخال النظام والسلاح الالماني على الجيش التركي وقد تم له ذلك بقدر ما سمح دخل الدولة وشاءت همة رجالها الكبراء . واستفاد الالمان من الدولة فوائد اقتصادية جمة وافادوها فائدة تذكر بالشكر والثناء حتى صار الجيش العثماني نواة لجيش كبير مخيف تكون في مستقبل

الايام ان شاء الله عدة الدولة في استرجاع مجدها الغابر

وهاك وصف الجيش القديم قبل وفاة سليم الثالث(١٨٠٧) : « كان الباب العالي يستطيع أن يحشد ٣٠٠٠٠٠ من المشاة والفرسان اذا دعا داعي الحرب فاذا حمي وطيسها اذن مؤذن في الناس فتطوعوا وملأوا ما عسى أن يحدث في صفوف الجيش من الفراغ. على أن الجيش الاصلي ومن وافاه من المتطوعين كان همجاً واخلاطاً عديمة النظام والتجربة حديثة عهـد بالخدمة العسكرية وقلّ منهم من قيد اسمه في السجلات قبل ستة أشهر واذا اصابهم انكسار أو رأوا مكروهاً او آنسوا كرباً لم يظهروا صبراً أو جلداً بل تفرقوا وهاموا على وجوههم هاربين لا يلوون على شيء ويعتون في الناس في طريق عودتهم سلباً ونهباً سواء كانوا في منطقة مصافية أو معادية اسلامية أو نصرانية. والتركي خصم عنيد وبطل صنديد اذا قاتل معتصماً بقلعة أو خندق أو دخل معمعة غير نظامية على أرض وعرة وكثيراً ما روعت الاوروبيين حملة الفرسان الترك اذ يقبلون كصاعقة شديدة تنقض فتنخلع لها القلوب وترتعد لهولها الفرائص . على أن الجيش التركي اذا قورن بجيوش أوربا ذات الحركات المنظمة والحيل البديعة كان كما قال نابليون جماعة من همج آسيا ولم يكن أي قسم من الفرسان أو المشاة يعلم لاستعمال الاسلحة نظاماً أو يعرف لها قانوناً ولم يكن يمرن على العمل الاجتماعي الذي تقضي به أبسط الضرورات الحربية فكان كل عسكري يتقلد من السلاح ما شاء ويقاتل العدو وفق ما يريد ويختار . وقد وصف الجنرال بوير الفرنسي الجيش التركي بانه معدوم النظام والثبات عاجز عن السير صفوفاً يفاجيء العدو مفاجأة همجية حادة مشوشة

« ومما زاد النظام فساداً والامر اختلاطاً ان ولاة الامور كانوا يكافئون الاجناد بقدر ما أصابوا من رؤوس القتلى فكان همّ الجنود قبل أن يستكملوا الانتصار أن يتفرقوا في أطراف الميدان يبحثون عن رؤوس القتلى ليحملوها الى فسطاط القائد حيث ينالون الاجر والجزاء كل بقدر ما أصاب من الرؤوس . وكان حال الاسطول شراً من حال الجيش وذهب سعي الغازي حسن والقبطان باشا حسين الذي خلفه في اصلاح الاسطول سدى »

وقد كان ضعف الاسطول العثماني بعد موقعة ليبنتو اكبر الضربات التي اصيب بها جسم الدولة ومن أعظم علل تأخرها وانحطاطها . ومن يقابل بين اسطول الدولة أيام السلطان سليمان واسطولها أيام استقلال اليونان لا يسعه الا التأسف

والتحسر على ما جره العثمانيون على دولتهم وامتهم باهمالهم. فلم يكفهم انهم وقفوا به عند نمط واحد من المراكب الخشبيـة الضخمة الثقيلة بل اهملوا امره وتركوه للاروام من رعاياهم. فلما كانت حرب الاستقلال اليوناني عطف بحارة الاسطول العثماني على أبناء جلدتهم وأولاد عمومتهم فهجروه هجراً أو أساءوا الخدمة ولم يخلصوا العمل. ومن العجيب أن الدولة العثمانية قد ملكت سواحل طويلة جداً ذات مرافىء عديدة جميـلة على جملة بحور. فالبحر الاسود والبوسفور وبحر مرمرة والدردنيل وبحر الارخبيل وبحر الشام والبحر الاحمر كانت في قبضة يدها ويعنو لها من النـاس من عرفوا بحب المخاطرة واشتهروا بحسن ركوب البحر ومهروا في امتطاء صهوته من زمان قديم وغابات لبنان واحراج الاناضول كفيلة بتموين الاسطول بالخشب الصلب الجيد الـكثير. فكان من المعقول بعد ذلك ان تحافظ الدولة على كرامة اسطولها لا سيما واوربا قارة لا عز لها الا بالبحر هو قوتها وهو عمادها وهو مصدر ثروتها وهي عدوة الدولة العثمانية تضمر لها الشر فكان حقاً على الدولة أن تعتقد أنه لا يفل الحديد الا الحديد وانه لا بقاء لها بين دول اوربا البحرية الا اذا كانت لها المنزلة البحرية الرهيبة

وقد فطنت الدولة العثمانية أخيراً الى ضرورة الاستعانة بضبـاط الاسطول الانكليزي على اصلاح اسطولها ولـكن سبق السيف العذل اذ يحتاج ساحل الاناضول وحده الى اسطول كبير قوي يحميه من عدوان اليونان وليس تدبير ذلك في مقدور الترك الآن

هذا ما عنّ لنا من علل انحطاط الدولة وكلها علل داخلية ويزيد بعض الباحثين عليها الامتيازات الاجنبية وعصيان بعض الولاة وترا [illegible] ون وخيانة القواد ورجال الحـكومة واهتمام تركيا بالقسم الاوربي الى غير ذلك من الامور الثانوية

٢ — العوامل الخارجية

أما العلل الخارجية فتنحصر في ظهور الروسيا والنمسا بمظهر العدوان ومظاهرة أو معاندة اوربا لهما مدفوعة بعامل العصبية الجنسية او المصلحة المادية

« قد زعم البعض أن الدول الاوربية تريد بالدولة العلية ودولة ايران شراً لانهما مسيحية وهما اسلاميتان ولا أبعد عن الحقيقة من هذا الزعم لان محور حركات الدول الاوربية المالية واكثرهم من الاسرائيليين لا من المسيحيين ولان اكبر الدول الاوربية المسيحية نصرت الدولة العلية على روسيا في حرب القرم بالمال والرجال

كما لا يخفى ووطأتها بعضها على بعض أشد من وطأتهـا على الدول الاسلامية فقد اجتاحت مملكة بولونيا المسيحية واقتسمتها وحاربت المانيا فرنسا حرباً لم يشهد التاريخ مثلها وامتلكت جانباً منها وحاربت النمسا قبل ذلك وهي صديقتها الآن واثارت فرنسا الحرب على كل دول أوربا المسيحية في عهد بونابرت ولو حالفته تركيا لاكتفى بمحالفتها واثارت انكلترا الحرب على جمهورية الترنسفال المسيحية وامتلكتها وعضدت اليابان الوثنية في حربها مع روسيا المسيحية . وقد تدعي الدول أحياناً ان الدافع لها الى الحرب أمر ديني كما ادعت روسيا وقت حرب القرم وكما ادعت دول البلقان ولكن هذه الدعوى لم تثبت على نار الامتحان فقد اختلفت دول البلقان واخذ بعضها بخناق بعض وقد يحالف احداها تركيا على محاربة الاخرى ومن المحتمل أن الدين كان من جملة الدوافع للحروب الصليبية الاولى ولكنه لم يكن الدافع الوحيد ولا الدافع الاقوى واذا قلنا ان المصالح المادية هي المحور الوحيد الذي تدور عليه سياسات الدول لا نخطىء . » (عن المقتطف بتصرف)

موجز تاريخ تركيا

من قيام عثمان الى آخر عهد سليمان

كان الاتراك العثمانيون عشيرة صغيرة من قبيلة اغوز ألجأتها غارة المغول الى مغادرة مواطنها بخراسان والاعتصام بآسيا الصغرى في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي . وقد أجاز السلطان السلجوقي لافرادها رعي أغنامهم في الاقليم الذي كان يعرف قديماً باسم فريجيا ابكتتوس على حدود الاقليم البوزنطي المعروف باسم بثنيا واتخذوا مدينة سوجوت (تابسيون) حاضرة لهم . وكانوا في حمى سلطان السلاجقة مكافأة لهم على ما قدموه اليه من المعونة الثمينة . وولد عثمان في سوجوت سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) وهو رأس الاسرة السلطانية التي أنجبت ٣٥ سلطاناً من عصبة ذكر واحدة وفعل عثمان فيما فعل ازاحة الحدود البوزنطية الى الغرب. أما أورخان ابنه فانه استولى على بروسه ونيقة وأدمج اقليم كره مي في أملاك العثمانيين وأنشأ فرقة الجنـد الجديد يني تشري (الانكشارية) التي كانت زهرة الجيوش العثمانية الغازية المظفرة قروناً عديدة . وفي سـنة ١٣٥٨ م (٧٥٩ هـ) عبر الاتراك مضيق الدردنيل وجعلوا في غاليبولي حامية منهم وشرعوا في اكتساح الاقاليم الاوربية التابعة لدولة الروم الشرقية (البوزنطية) فسقطت أدرنه وفيلبه في أيديهم في سنوات قليلة . وبانتصارهم على أشجع فرسان اوربا على ضفاف المريتزا (١٣٦٤) وفي سهول قوصوه (١٣٨٩) تأيد امتلاكهم لاقاليم شبه جزيرة البلقان كلها الا مدينة القسطنطينية وما حولها . ونجت عاصمة الامبراطورية الشرقية مؤقتاً باغارة تيمور التتري على املاك العثمانيين في آسيا الصغرى . وبانتصاره انتصاراً باهراً على سلطانهم بايزيد الاول في موقعة انقرة الشهيرة سنة ١٤٠٢ م (٨٠٤ هـ) ظهر كأن الدولة التي امتدت من نهر العاصي الى نهر الطونة على شفا الخراب والدمار بضربة واحدة . على أن الله سبحانه وتعالى نظر اليها نظرة وقيض لها السلطان محمد الاول چلبي فلم الشعث وجمع المتفرق وأحكم النظام بحكمته التي لا يختلف فيها اثنان . فبعد انقضاء فترة سلم وسكون مضت في عمل الاعمال السلمية المفيدة استطاع مراد الثاني أن ينقذ السلطنة من غارة هنيادي (بطل الافلاق الابيض)

وينتقم من اهل أوربا الذين نقضوا عهود المحالفة بانتصاره في وارنة سنة ١٤٤٤ انتصاراً باهراً على جيوش الاوربيين الذين كانوا قد اجتمعوا لقتاله قتالاً دينياً . وكان انتصاره بحيث أمن على بلاده من جهة الشمال وبحيث تفرغ العثمانيون لاحراز سلسلة انتصارات باهرة مدة القرنين التاليين . وفتح محمدالثاني القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وزالت بسقوطها في يد الاتراك العثمانيين البقية الباقية من الامبراطورية الشرقية . واستلحقت بلاد القرم سنة ١٤٧٥ وأصبحت جزائر بحر الارخبيل ملكاً



السلطان سليمان الكبير

للعثمانيين وخفق العلم العثماني على قلعة أوترانتو في ايطاليا نفسها . واستطاع سليم الاول في مدة حكمه القصير التي لم تكن لتزيد عن ثماني سنوات أن يقهر شاه الفرس وأضاف الى السلطنة العثمانية اقليمي كردستان وديار بكر كما انه استولى أيضاً على الشام ومصر وبلاد العرب وانتزعها من أيدي المماليك سنة ١٥١٧ ولم يكفه انه أصبح سيد البلاد المقدسة (مكة والمدينة) بل تسلم ايضاً من آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة الآثار النبوية الشريفة وحق الوراثة في الخلافة الاسلامية

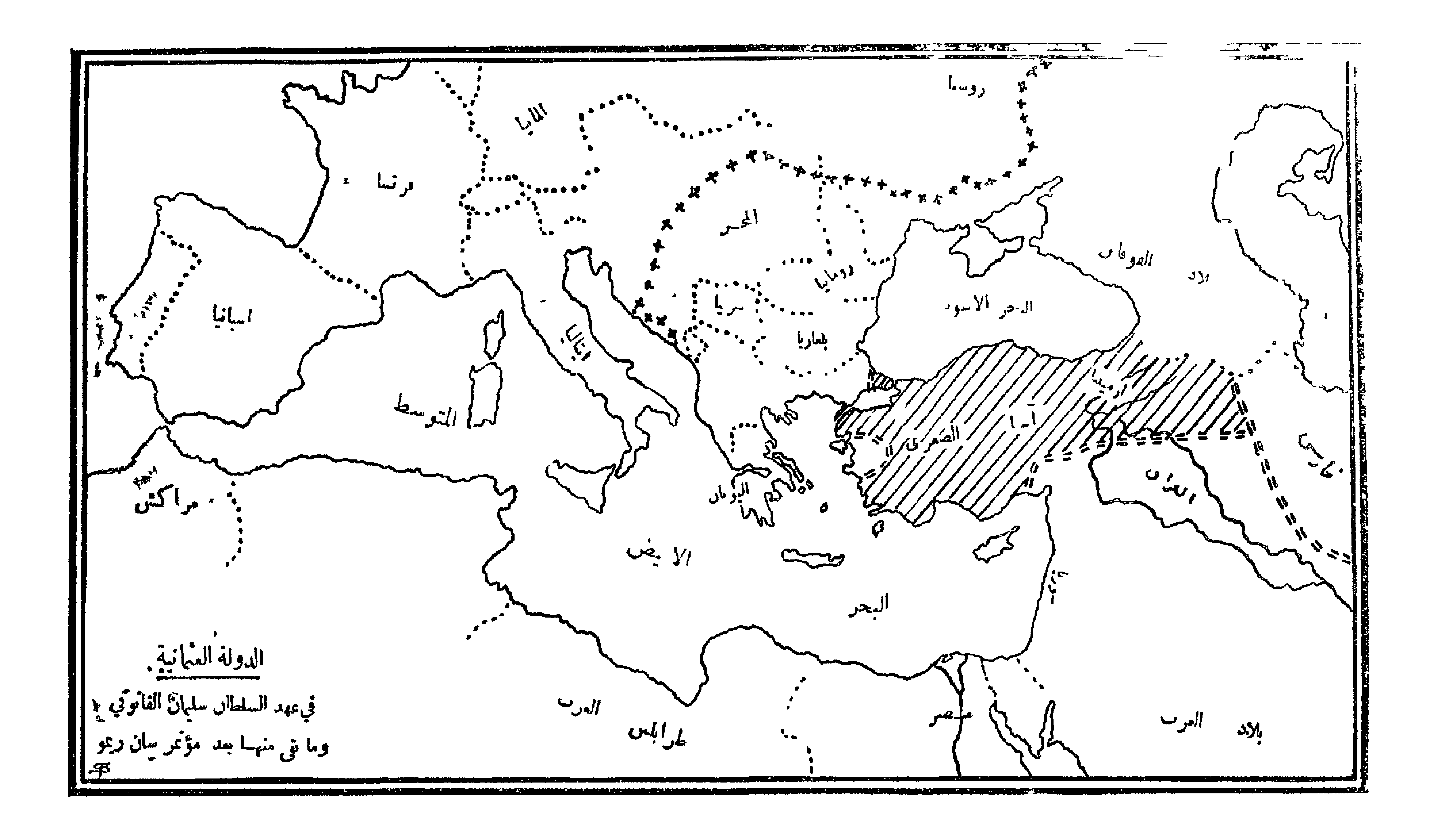
وكسف السلطان سليمان أعمال ابيه سليم الاول بما قام به من الاعمال الباهرة الخالدة العظيمة . ففي سنة ١٥٢٢ طرد فرسان رودس من مكامنهم التلصصية فيها.أما

في الشمال فقد أستولى على بلغراد ثم انتصر على فرسان المجر في موقعة موهكس سنة ١٥٢٦ انتصاراً باهراً جداً وقتل ملكهم لويس الثاني و ٢٠ الفاً من جنده وأصبحت بلاد المجر عمالة عثمانية مدة قرن ونصف . وحاصر سليمان فينا سنة ١٥٢٩ ومع انه لم يستطع قهرها الا انه ارغم الارشيدوق فرديناند على دفع الجزية . وليس استحقاق سليمان لقب الاكبر مبنياً فقط على اشتهاره بالحكمة وحسن الرأي مع انتصاره انتصارات باهرة متعاقبة عديدة بل على انه كان سيد اوربا ومقدم ملوكها .



بربروسه القائد العثماني

وفي الوقت الذي لمع فيه شارل الاول قمة المجد والقوة استطاع سليمان اضافة بلاد المجر الى املاكه الواسعة وفي عصر الاساطيل الاوربية القوية عصر امراء البحر العظام مثل دوريا ودريك اكتسحت أساطيله شطوط بحر الروم وجزائره الى سواحل اسبانيا ونشر رجاله مثل بربروسه ودراغوت وبياله الخوف والفزع على سواحل اوربا وشمال افريقية وطردوا الاسبان من بلاد الجزائر وقهر العثمانيون سفائن البابا والامبراطور والدوج التي اتحدت على قتالهم في موقعة بريفيزة البحرية سنة ١٥٣٨ وكانت املاك سليمان تمتد من بودابست على الطونة الى اسوان على شلالات النيل ومن الفرات الى بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق)


الدولة العثمانية
في عهد السلطان سليمان القانوني
وما بقي منها بعد مؤتمر سان ريمو
روسيا
ألمانيا
فرنسا
المجر
رومانيا
صربيا
بلغاريا
البحر الأسود
القوقاس
إسبانيا
إيطاليا
المتوسط
اليونان
آسيا الصغرى
العراق
فارس
مراكش
الأبيض
البحر
العرب
طرابلس
مصر
بلاد العرب

الفصل الاول

دور التدلي والانحطاط ١٥٦٦ — ١٦٤٠

انعكاس الآية ـ اسباب الانحطاط ـ سليم السكير ـ صقلي محمد ـ سنان باشا ـ الحملة على استراخان ـ الاستيلاء على قبرص ـ موقعة ليبنتو ـ الدون جون النمسوي ـ أولوج علي ـ الصلح مع البندقية ـ مراد الثالث ومحمد الثالث ـ صفية ـ الكونت سقالا ـ موقعة كرزت ـ احمد الاول ـ بعثة انكليزية ـ مراد الرابع ـ الاستيلاء على جورجيا ـ فتنة جنود السباهي ـ شدة السلطان ـ الاستيلاء على بغداد ـ موت مراد الرابع

بلغت السلطنة العثمانية لعهد سليمان شأواً رفيعاً من العز والمنعة وأدركت الغاية من الاتساع وبسطة الرفعة . غير ان اسباباً داخلية وخارجية عملت على تدلي العثمانيين وتدهورهم وانكماش ظلهم (١)

كانت البندقية أول من نازع سلطنة سليمان السيادة والعز الرفيع . وقد جلس على عرش الرجل العظيم بعد وفاته ولده المسمى بحق سليم السكير . ولم يكن من المعقول أن بناء السلطنة الشامخ الذي رفع ابوه قواعده بمساعدة جماعة من أماثل الرجال ينهار على يديه دفعة واحدة. وذلك أن نفراً منهم وفي مقدمتهم الصدر الاعظم صقلي محمد لم يألُ جهداً في السير بالدولة في السبل التي اختطها لهم مولاهم واستاذهم الراحل الكريم . وأخذوا يفكرون في القيام بأمور جسيمة خطيرة ويعدون الكتائب لفتح الفتوح فأرسلوا سنان باشا على رأس جيش لقهر بلاد العرب فتم له ما أراد ودعا خطباء مكة في المنابر « للسلطان الاعظم والخاقان الافخم سلطان البرين والبحرين وصاحب المزارين الاسلاميين الشريفين سليم خان ابن سليمان خان » وأرسلوا أيضاً الى استراخان حملة ـ سيأتي شرحها ـ لم تكن قرينة النصر والظفر فلم يعد من عساكرها الى الاستانة غير ربعهم . ثم تلا ذلك فتح قبرص وانتزاعها من أيدي البنادقة وقد عهد هذا الى منافس من منافسي الصدر الاعظم صقلي وهو رجل يدعى لالا مصطفى كان معروفاً بتهوره وركوبه المراكب الخشنة من الغلظة والقسوة ولم يستول على الجزيرة الا بعد هلاك

(١) راجع كتاب الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده للاستانبي ، وأوربا والجامعة الاسلامية لرفيق بك العظم ، وكتاب المعلوم والمجهول للمرحوم ولي الدين بك يكن ، وكتاب زوال السلطنة العثمانية من أوربا للكاتب جرهل ماكر ، وكتاب التصوف والسحر في تركيا للسيدة مارغت

خمسين ألفاً من جنده انتقم لهم من قائد حماتها الابطال المدعو براجادينو بسلخ جلده حياً

على أن السيادة البحرية التي أصابها العثمانيون باستيلائهم على جزيرة قبرص لم تكن لتستمر من غير نزاع . فقد تألف حلف بحري عظيم من البنادقة والاسبانيين وفرسان مالطة وغيرهم وأعد أسطول مؤلف من ٢٠٠ سفينة و٦ ماعونات هائلة وجعل بقيادة الدون جون النمسوي وكان اذ ذاك شاباً لا تزال أخبار اضطهاده لعرب الاندلس ترن في آذان الاوروبيين وتطربهم وكان الناس يعدونه أشجع أهل زمانه وفارس عصره وأوانه . ولم يسع الاتراك العثمانيين الا أن يقابلوا هذا الاسطول العظيم بأسطول أكبر منه سفناً وأعز نفراً فحشدوا ٢٤٠ سفينة كبيرة وستين سفينة صغيرة في خليج بتراس وجعلوها بقيادة مؤذن زاده وأولوج علي وغيرهما من أكابر القواد أهل التجربة وأصحاب البصيرة . وفي السابع من اكتوبر عام ١٥٧١ برز الدون جون بسفائنه من خليج ليبانتو وأصلى العثمانيين حرباً وقد جعل سفن القلب على شكل نصف دائرة بقيادة أمير بارمة الشهير وجعل نفسه في المقدمة وجعل الست الماعونات في صدر خط القتال واتخذها ردءاً . وكان الترك هم البادئين ففغرت مدافعهم أفواهها غير أن الخسارة العظيمة أصابتهم لان سفائنهم لم تقتحم خط القتال ولم تصل الى حيث كان الدون جون حتى لحقها عطب شديد من الست الماعونات القائمة ردءاً للسفن الاوروبية في صدر خط القتال .والتحمت سفائن القواد من الطرفين ونشبت معركة يشيب من هولها الولدان مدة ساعتين من الزمان وقتل القائد التركي في آخر الامر وانكفأت سفينته بمن فيها وانكسر القلب العثماني وولت سفن الجناح الايمن الادبار . فاما الجناح الايسر بقيادة أولوج علي فأصاب انتصاراً وكسر دوريا (ابن أخي القائد البحري العظيم المشهور في التاريخ بالاسم عينه) وكاد يستولي على بعض سفن الاعداء لولا انه اسقط في يده اذ شاهد ما حل بقومه من الهزيمة والعطب فلم يسعه الا شق طريق له بين جموع السفن المضطربة المائجة ولم يعد الى البوسفور بأكثر من أربعين سفينة هي جملة ما سلم من أسطول كبير عظيم . وكانت جملة ما أغرق وأحرق من المراكب التركية أربعاً وتسعين ولم يقل ما أسر عن مائة وثلاثين وخسر الترك من الرجال ٣٠ ألفاً وحرر ١٥٠٠٠ من أرقاء الاوروبيين الذين في خدمة الاسطول العثماني

وهذا الانكسار المبين الذي لحق بالاساطيل العثمانية كان لا بد يؤثر عاجلاً في

سيادة الدولة البحرية وينتزعها من يدها . غير ان شيئاً من ذلك لم يكن . صحيح ان أثره المعنوي كان عظيما فظهر به أن العثمانيين يمكن ان يقهروا وفي دائرة الامور المستطاعة غلبهم والانتصار عليهم ولكن كان هذا فقط ولم تكن نتيجة معركة ليبانتو لتؤثر في التوازن الدولي البحري في بحر الروم أو تغير الحالة السابقة لها . ولم يكد المتحالفون يخرجون من المعمعان ظافرين حتى تفرقوا وعاد كل فريق الى وطنه وعادت كل طائفة من سفائنهم الى مستقرها ومرساها وأخذوا يطبلون ويزمرون ويقيمون الحفلات والولائم والصلوات ابتهاجاً بما أتاهم الله من النصر المبين على أعدائهم العثمانيين . ثم أخذوا يتشاحنون واختلفوا فيما بينهم على جاري عادتهم . فاما الترك فعادوا من فورهم وساعتهم يلمون شعثهم ويجمعون متفرقهم ويرممون ويصلحون ما أصابه العطب من مراكبهم وأخذوا ينشئون غير ما أحرق وغرق حتى كمل لهم في عدة أشهر أسطول عظيم كونوه بقوة الجبابرة وأفعال السحرة وكانت عدته ٢٥٠ سفينة . فلما رأى البنادقة من العثمانيين هذه الهمة القعساء وانهم عادوا فصاروا أصحاب العز والسلطان في بحر الروم خافوا مغبة ذلك وطفقوا يتوددون الى العثمانيين وعقدوا معهم صلحاً على قاعدة الاعتراف بملكية السلطان لجزيرة قبرص وقيامهم مع هذا الاعتراف بدفع غرامة حربية باهظة بها عوض على الاتراك نفقة الاستيلاء عليها خير عوض . وكذلك زال أثر معركة ليبانتو السيء من أذهان العثمانيين

وساد السكون بعد ذلك بين البنادقة والعثمانيين مدة ربع قرن من الزمان وكان هذا بفضل نفوذ النساء لا مراعاة لحرمة معاهدات . وكان مراد الثالث الذي خلف أباه سليمان سنة ١٥٧٤ ضعيف الرأي عاطل الذهن غير موفق الى عمل صالح ولا مسوق الى خير فكانت الوظائف لعهده تباع بيعاً ويتولى الامور خساس الناس وأسافل القوم وكان هو نفسه فريسة تأثير جماعة من النساء والحظيات وكان من جملتهن امرأة عرفت بذكائها وحسن رأيها تدعى صفية. كانت صفية هذه من بني البندقية ومن أسرة بفو الشهيرة وأدركت منزلة عظيمة بين نساء السلطان وجواريه وملكت عليه قلبه فتسلطت على الامور وأخذت بزمام الشؤون فاجرتها على ما يوافق هوى ابناء جلدتها القدماء من البنادقة . فلما مات زوجها وخلفه ابنها محمد الثالث ـ أحد اولاد مراد الثالث وكانوا ١٠٢ قتل منهم ١٩ بأمر أخيهم محمد الثالث لدى تبوئه العرش ـ أصبحت لديه أيضاً صاحبة أمر غير دافع ولها من الامر والنهي ما كان لها أيام ابيه . وكان من اقربيه

المقربين اليها رجل يدعى سقالا من أشراف الايطاليين بجنوة كان قد وقع في أسر الترك وهو صغير وكان ابوه الذي يدعى الكونت سقالا قد تزوج من امرأة من سبي الترك فسار الولد في اثر ابيه وتزوج بتركية من حفيدات سليمان القانوني. وتمكن سقالا بما له من المقدرة والمواهب والذكاء مع الحظوة عند والدة السلطان من التدرج في سلم العلياء والتقلب في مناصب الدولة الخطيرة. وفي ١٥٩٦ خدم وطنه الجديد تركيا أجل خدمة وذلك ان جيوش النمسا وترانسلوانيا كانت تتطاحن وتتصارع في معركة هائلة استمرت ثلاثة ايام كوامل وكانت رايات النصر تكاد تخفق على القوى الاوربية وهمَّ السلطان بالهرب من سهل كرزت دفعتين لولا أن قيض الله لنصرة جيوش العثمانيين سقالا هذا على رأس جماعة من فرسان الترك فاقتحم الصفوف وانقض على الاعداء كالصاعقة وما هي الا نصف ساعة حتى ولت عساكر النمسويين الادبار لا تلوي على شيء. وكان أسبقها الى الهرب الارشيدوق والامير حتى اختلط الحابل بالنابل وعظم الهرج وصاروا أخلاطاً تهيم على وجوهها تلتمس النجاة من وجه الترك بعد ان كانوا جيشاً منتظماً يساجلهم الحرب ويكاد يفوز عليهم ويبزهم وترك النمسويون ٥٠ الفاً من الجثث الهامدة على الثرى

على ان هذا النصر الذي اوتيه الترك على يد سقالا كان كالغرة البيضاء في الاديم الاسود اوكوميض البرق في الظلام الدامس لان العهد كان عهد فتن داخلية وحروب خارجية غير ذات شأن : ثورات حكام وفساد أحكام وفوضى وارتباك واختلال أمر واضطراب حبل . ومما يدل على هبوط الدولة وأفول نجمها وزوال عزها وغروب شمس مجدها انها في عهد السلطان التالي وهو احمد الاول وكان غلاماً لم يتخط الرابعة عشرة عقدت بعد حروب طويلة معاهدة مع النمسا عاملتها بها معاملة النظير بعد ان كانت سيدة والنمسا مسودة تأمر فتسمع وتقول فتتبع . هذا فضلاً عن انها بمقتضاها منعت الجزية المقررة وأصبحت النمسا في حل من الوقوف تجاهها مرفوعة الرأس محترمة الجانب قوية عزيزة بعد ان كانت تابعة ضعيفة ذليلة. نعم صارت تركيا منذ العهد الذي نحن بصدده دولة عادية لا يخيف شبحها ولا يرهب جانبها وتدلت من درجات العز والسيادة الى درك الذلة والضعف بحيث صارت يطمع في املاكها ويعتدي عليها بل كانت اذ ذاك قد بلغت حداً من الضعف ومقداراً من الوهن وبلغت من الاختلال والاعتلال ما كان يمكن معه اقتسامها لو اجمعت الدول الاوربية على ذلك ولم تلهها

الحروب الاسبانية . نعم كانت دول اوربا في العصر المذكور منصرفة عن الاتحاد على الدولة العثمانية الى مشاكل خاصة بهن وحروب متعلقة بمطامع البعض منهن في البعض الآخر والا كان يكون انتهاب املاكها من الامور الميسورة والحوادث الواقعة ولا سيما ان انكلترة (مع وجود سفير لها منذ عصر اليصابات سنة ١٥٨٣) لم يكن حينئذ في استطاعتها ان تنصر تركيا على اعدائها لو كان اجتمع على اقتسامها جماعة منهم ولم تكن قد دخلت سلطنة الهند في حكمها فلم تكن قد تقررت سياستها المتعلقة بالشرق الادنى بعد تلك السياسة التي ولدتها صيرورة الهند من املاك انكلترا والتي جعلت المصالح الانكليزية والعثمانية في ارتباط . لذلك لا نبالي اذا قلنا ان اقتسام الدولة العثمانية وقد وصلت الى شفا الخراب والدمار كان يمكن ان يتم اذ ذاك ولم يمنع حصوله الا اختلاف دول اوربا وتشاحنها يدلك على صدق ذلك أن السير توماس رو رئيس البعثة الانكليزية في الاستانة في ذلك العهد الف كتاباً عن رحلته الى بلاد الدولة وفيه يقول ان دولة الاتراك العثمانيين كما يلوح له صائرة الى العدم

على ان السكينة عادت فشملت الحدود الشمالية للسلطنة العثمانية وكان امبراطور النمسا اذ ذاك غير غافل عن عظيم الفائدة التي تعود على بلاده اذا هو حافظ على عهود الولاء والصفاء مع الدولة العثمانية ولم يشتغل معها بحرب يلهو بها عن حروب الثلاثين سنة الشهيرة التي كانت تتأجج نيرانها ويستعر اوارها في حدود بلاده الشمالية . كذلك لم يكن في نفوس الترك مطمع الى الاعتداء على النمسا اذ ذاك وكان السلطان الجديد الذي تسنم عرش الخلافة عام ١٦٢٣ باسم مراد الرابع من الامراء الذين يجري في عروقهم دم الشجاعة والنخوة الذي كان يجري في عروق أسلافه السلاطين العظام . غير انه آثر أن يكون مشهد شجاعته وفروسيته ميداناً آخر غير الميدان النمسوي ولذلك عقد مع الامبراطور معاهدة جديدة بها أمن على الحدود التركية الشمالية في النصف الاول من القرن السابع عشر

كان مراد الرابع آخر السلاطين الشجعان المحاربين من سلالة عثمان وقد جعل فارس هدفاً لاطماعه . وقد أصاب العثمانيون لعهد مراد الثالث انتصارات باهرة ثم عقدوا مع الشاه صلحاً سنة ١٥٩٠ وبه أخذ الترك جورجيا وتبريز وبعض العمالات الفارسية الواقعة على السواحل الجنوبية لبحر الخزر. على ان هذه الملحقات لم تمح ذكراها

الالبية من أذهان الفرس فحاولوا المرة بعد المرة استعادتها وتم لهم ذلك أخيراً بمقتضى معاهدة سنة ١٦١٩ التي جعلت الحد الفاصل بين المملكتين الفارسية والتركية كما كان ايام سليم الاول وهكذا استرد الشاه ما فقد من بلاده وأقاليمه . لذلك عزم مراد الرابع على اعادة فتوحات سلفه وسميه . على ان المصاعب العظيمة قامت تعترض حكمه وتعرقل سيره فانه كان عند تبوئه العرش ولداً لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره وكانت دولته في حاجة ماسة شديدة الى يد قوية تقبض على زمام الامور . فكانت المصائب والثورات تتأجج في كل مكان وكان الفرس منتصرين فائزين وآسيا الصغرى فريسة الفتن والولاة متمردين كلٌّ يود الاستقلال بما تحت يديه من الاقاليم والبقاع فضلاً عن ان ولايات أفريقية الشمالية الثلاث كانت تكاد تكون مستقلة عن الاستانة في كل شيء . كذلك كانت خزانة الحكومة خاوية على عروشها والمجاعات ناشبة اظفارها بالسكان في كل مكان وأفراد الجنود ووحدات الجيش على شر ما تكون من القحة والتمرد وسوء النظام . واستطاع السلطان الفتى بمعاونة امه القادرة أن ينشر سلطته ونفوذه بنوع ما وسط هذه المخاوف وأمام هاتيك الصعاب وقد أصابه في سبيل ذلك كثير من الشر ولحقه عظيم من الاذى والصغار . ففي السنة التاسعة من حكمه ثارت جنود السباهي واجتمعت جموعهم في ميدان السباق من الاستانة وطلبوا من السلطان اعدام جماعة من الكبراء والعظماء وفي مقدمتهم صدره الاعظم حافظ باشا وقد اقتحموا السراي السلطانية وصاحوا بصوت واحد قائلين نريد رؤوس السبعة عشر الذين طلبنا قتلهم . وكان لا بد للسلطان من أحد أمرين الرضوخ والاذعان لهم أو الاعتزال. وعبثاً حاول تهدئة ثائرتهم واقناعهم بالحجة ولما أعياه الأمر أرسل في طلب الصدر الاعظم ولم يكن حافظ باشا ليتأخر عن تلبية نداء مولاه كما انه لم يجبن أو يحاول فراراً وانما قابل القدر بالرضاء وقال لقد رأيت في المنام رؤيا هذا تأويلها ولست بخائف ولا أنا أجزع من الموت وأبت مكارم أخلاقه واخلاصه الا أن يموت فداء مولاه . غير انه اعتد للدفاع عن نفسه وتقدم لقتال الاشقياء المتمردين ثم وجه الكلام الى السلطان وقال أسرت يموت الوف مثلي فداء مولانا وخليفتنا . وبعد تلاوة بعض آي القرآن الكريم برح السدة متدرعاً بالدروع وتأوهات مراد ومن معه وقتل حافظ باشا اول من هجم عليه من الاشقياء ثم خر مضرجاً بالدماء مطعوناً سبع عشرة طعنة . على ان السلطان لم يغادر المسرح الذي مثلت عليه تلك الفاجعة من غير صب اللعنات على اولئك القتلة

السفاكين للدماء الزكية فقال اللهم اني اعوذ بك من شر هؤلاء الشياطين الذين لا يخافون بأسك ولا يرهبون بطشك ولا يرعون لمقام خليفة رسول رب العالمين حرمة اللهم فانزل عليهم اللعنات وسلط عليهم من ينتقم لاولئك الابرياء الذين قتلوا على غير ذنب وهلكوا من غير جريرة

والتف حول السلطان جماعة من الاجناد المخلصين استعان بهم على توقيع العقاب الشديد بتلك الجنود الثائرة التي قتلت وزيره الامين حافظ باشا . وقد تخطفت بامره رسل الموت أرواح اولئك العصاة في كل اقليم وبلد وضاقت مياه البوسفور بجثث من ألقي فيه من قتلى السباهي والانكشارية وزاد السلطان جرأة وهيبة في عيون الناس وكان سيد من ينتضي السيف ويسدد السهم نخافته الرعية وماثت قلوب أهل البغي والفساد خوفاً وكان يمر بالشوارع والطرقات فلا يرى أحداً من الاشرار الا استل روحه من بين جنبيه قبل ان يرتد اليه طرفه . وهكذا انتقم لحافظ باشا بدل المرة مرات وارتكزت سلطة مراد على أساس من الرهبة مكين وقد غالى في قسوته وتطرف في شدته فادخل الطائع مع العاصي وحشر الابرياء في زمرة المجرمين وقتل مئات ممن لم يجرموا ولم يذنبوا وكان يأخذ بالظنة وكانت كلما كثرت ضحايا شبهاته كلما زادت شهوته وحبه لسفك الدماء . يقول المؤرخون ان جملة من قتلوا في عهده بامره مائة الف وكان يشرب الخمر فكان كلما شرب منها كلما تعطش الى شرب الدماء . على ان شهوة شرب الخمر وغيرها من الشهوات ما كانت لتفل له عزماً او تقلل له حزماً او تخفف من نعرته الحربية وشجاعته العظيمة الحديدية وكان ينظر في كل أمر من غير كلال ومن غير ملال ويرسل عين عنايته الى سائر اركان الحكومة والادارة فكان يشرف ويهيمن ويرقب الامور فانتشر العدل وساد الامن وحسنت الاحوال واصبح الناس وكأن سليمان القانوني قد بعث فيهم خلقاً جديداً . صحيح انه كان مستبداً بل كان غاشما ولكن الناس آثروا ظلم الواحد على ظلم الجماعة بل آثروا العيش في ظلال حكم الفرد القاهر على العيش في ظلال حكم الاكثرين الهمجي . ولما علم انه قطع دابر اهل الفساد وضرب على ايدي الاشرار غادر الاستانة ليعيد الامن الى نصابه في تخوم السلطنة الاسيوية فاسترد اريوان سنة ١٦٣٥ وعاقب بعض عماله في آسيا الصغرى عقوبات صارمة وقد قضى الاسابيع والشهور ولا وسادة له الا ظهر فرسه . وفي سنة ١٦٣٨ زحف على بغداد لاستخلاصها وكانت في ايدي الفرس منذ ايام سليمان القانوني وقاومته

حاميتها مقاومة اليائس وقاتلت قتال المستميت ولكن مراداً كان يقود الجنود بنفسه لحرب أهلها وكان يعمل في حفر الخنادق مثل عامة الجند . ولما أرسل حماة بغداد رجلا قوي الجسم مفتول العضل عظيم القامة ليدعو العثمانيين الى المبارزة انبرى مراد نفسه لمبارزته وما هي الا ساعة تقضت في النضال الشديد حتى شق مراد خصمه نصفين من أم رأسه الى أسفل فكه . ولا يزال زرده السابغ المصنوع من جدائل الحديد والذهب معروضاً للانظار في متحف الآثار بالاستانة شاهد عدل على بأس مراد الرابع العظيم. ولما سقطت بغداد قامت المذابح فيها على ساق وقدم ولم يسلم من حاميتها التي كانت نيفاً وثلاثين ألفاً غير ثلاثمائة ولم يكن حظ سكانها التعساء بخير من حظ حماتها المساكين. وعقد الصلح بين الترك والفرس على قاعدة معاهدة سليمان التي ابرمت سنة ١٥٥٥ وردت اريوان الى الشاه ولكن بغداد صارت تابعة للعثمانيين من عصر مراد الرابع الى قبيل وقتنا هذا الحاضر . وعاد مراد الرابع الى الاستانة ودخلها دخول الفاتح العظيم والبطل الكبير وجرى لاستقباله احتفال فخم لم تر الاستانة مثله واستقبلته رعيته بالحفاوة والهتاف الشديد واقيمت على ضفاف البوسفور والقرن الذهبي أنوار الزينة البهيجة وكانت تشق شهب الالعاب النارية جوف الفضاء ويكاد يصل تهليل القوم الى عنان السماء

وفي السنة التالية (سنة ١٦٤٠) توفي مراد الرابع وهو في الثامنة والعشرين من عمره وهو آخر سلطان شجاع محارب من سلالة آل عثمان

الفصل الثاني

سلطة الوزراء ١٦٤٠ — ١٧٥٧

أسرة كبريلي — كبريلي محمد — كبريلي زاده أحمد — موقعة سانت جتثار — مو نتكوكولي — الاستيلاء على كريد — موروسيني — الحرب مع بولندة — يوحنا سوبيسكي — موقعتا خوكزم ولمبرج — قره مصطفى — غزوة النمسا — حصار فينا الثاني — نجدة سوبيسكي — انهزام الترك وسلامة فينا — محمد الرابع وحبه اللهو والصيد — معاملة السفراء — موقعة موهكس الثانية — استرداد بودا — موروسيني في اليونان — كبريلي زاده مصطفى — الحرب مع النمسا — موقعة سلانكمن — مصطفى الثاني — موقعة زانته — توسط اللورد باجت — صلح كارلوتز — استيلاء البرنس يوجين على بلغراد — صلح بساروفتز — زوال هيبة تركيا

من موت السلطان مراد الرابع الى قيام السلطان محمود الثاني في القرن التاسع عشر وزمام دولة الاتراك العثمانيين بأيدي جماعة من الوزراء. نعم كان أكثر السلاطين العثمانيين الذين خلفوا مراداً الرابع خاملين ضعفاء ليس في سيرهم وأعمالهم ما تلذ تلاوته ويحسن التحدث به فكانوا رهناء السراي السلطانية حلفاء الكاس والطاس عاكفين على ما يضعف البدن ويميت النفس من الموبقات تاركين حبل الامور على غاربها جاعلين زمام الامور في أيدي كبار الموظفين الذين كانوا يسوقون البلاد نحو الشقاء بقدم سريعة أو بطيئة حسب مقدرة كل منهم . وقد أتاح الله للدولة في مفتتح العهد الذي نحن بصدده أسرة البانية شهيرة عرف رجالها بالذكاء والقدرة واشتهروا بالاخلاص فاليهم يرجع فضل توقيف عوامل الانحلال في تركيا حيناً من الزمان وكان أولهم كبريلي محمد اختير لمنصب الصدارة سنة ١٦٥٦ وهو في السبعين من عمره . كان كبريلي محمد شديد البأس صعب المراس قاسي القلب مر الانتقام فنشر الخوف والفزع في كل مكان وعمل على اعادة النظام بين الانام . كان نافذ الرأي بصيراً بالامور له في قلوب الحكام والولاة هيبة وعلى أعمالهم رقابة ولو كانوا في أبعد أطراف المملكة وكان الامر أمره والنهي نهيه في كافة المرافق وسائر الشؤون مدة خمسة أعوام ويقال ان جملة من قضى عليهم كبريلي هذا ٣٦ ألفاً وقد زعم رئيس الجلادين لعهده ان جملة من قتلهم هو وحده بأمر الوزير أربعة آلاف بمعدل ثلاثة في اليوم الواحد . وقد كان كبريلي محمد معروفاً باعتداله ورفقه قبل ان تسند اليه مهام منصبه الخطير ولكنه

وجد ان الكلمة متفرقة والامور مضطربة وعفريت الخراب والدمار والفوضى منطلقاً يعيث في أرض السطنة فساداً وعلم ان لا دواء لهذه الادواء الا الشدة والصرامة فمضى في سبيلها غير متردد ولا ملتفت الى الوراء حتى تم له ما يتم لكل مستبد عادل وتوفى سنة ١٦٦١ فخلفه في منصبه ابنه أحمد وكان أبعد منه شهرة وأخلد منه ذكراً . كان كبريلي زاده احمد صدراً أعظم مدة أربع عشرة سنة وهو الكل في الكل أو هو السلطان الحقيقي صاحب الامر النافذ والرأي المطاع وقد أجمع سائر المؤرخين على انه أبرع سياسي أنجبته تركيا في كافة العصور والقرون والازمان وأحذق مدبر للامور برز في دولة آل عثمان . وكان مثل أبيه قوي الارادة شديد الاهتمام باداء الواجبات ولكنه كان أكثر من ابيه علماً واطلاعاً وتثقيفاً وقد تعلم من أبيه ما لم يتعلم أبوه من احد وكان في التنظيم الاداري بارعاً لا يباري ولكنه كان في ميدان الحروب قائداً غير دائم التوفيق

وكان منصب الحكم في المجر وترنسلوانيا محاطاً دائماً بالدسائس فاضطرت تركيا بسبب ذلك الى محاربة النمسا . وكان على كبريلي زاده احمد أن يقود جيشاً عثمانياً الى ضفاف الطونة ففي موقعة سانت جتار التي نشبت سنة ١٦٦٤ انكسرت كتائبه وظهر عليه ريموند أمير مونتكوكولي وكانت نسبة جيش الاوربيين الى جيش العثمانيين كنسبة واحد الى أربعة. وزاد الترك غروراً انهم رأوا افراد الفصائل الفرنسية من الجيش الاوربي فتياناً مرداً مخنثين فاستهزأوا بهم وقالوا ما عسى أن تفعل هذه البنات معنا . على أن هؤلاء البنات وبقية جيوش مونتكوكولي كانوا خير من يصد الاتراك العثمانيين ويفل جموعهم بحيث بلغت قتلاهم عشرة آلاف واضطر قائدهم الصدر الاعظم أن يعود متعثراً في أذيال الخيبة والفشل

على أن الله عوض الترك في كريت خيراً وذلك انهم وجهوا عليها حملة وجيشاً عظيما وكان صيتهم لا يزال عظيماً في أعمال الحصار . ومع انهم قضوا عشرين عاماً قبل أن يستولوا عليها ويقهروا حاميتها الباسلة من البنادقة بزعامة البطل موروسيني فانهم نجحوا أخيراً سنة ١٦٦٩ في مهمتهم وأصبحت كريت ملكاً لهم وفي السنوات الثلاث الاخيرة اقتحم الترك أسوار عاصمتها المدافعة ٥٦ مرة وبرز حماتها لقتالهم تسعين دفعة وقد بلغت جملة الالغام المستعملة ١٤٠٠ وجملة من قتل من الترك ٣٠ ألفاً ومن البنادقة نحو نصف هذا العدد . هذا واستمرار الترك على هذا الحصار هذه المدة الطويلة من

غير يأس أو تردد أو ضعف أو وهن ومن غير التفات الى كثرة الضحايا وتعاظم الخسائر حتى يدركوا وطرهم ويقضوا لبانتهم مما أكبرهم في عيون الناس وأعاد الخوف والرهبة منهم الى النفوس

على أن النجاح في الاستيلاء على كريت كان كالغرة البيضاء في الاديم الاسود وقد ظهر للاتراك عدو لدود وخصم عنيد في الشمال . وذلك ان القوازق الاوكرانيين التمسوا معونة الترك حينما أرغمهم ملك بولونيا على التبعية له فانبرت السلطنة للدفاع عنهم وكانت مدة الحرب والخصام قصيرة انتهت بتنزل ملك بولونيا عن مطالبه وقرر على نفسه دفع الجزية وأعطى خصومه فوق ذلك أقليمي بادوليا واكرانيا . على ان أشراف بولونيا وأعيانها بزعامة حنا سوبيسكي القائدالشهير أبوا موافقة الملك على شروط الصلح مع الترك وقالوا بل نقاتلهم الى النهـاية وبالفعل عبئت الجيوش العظيمة التي كسرت الاتراك في واقعة خوكزم سـنة ١٦٧٣ وموقعة لمبرج سنة ١٦٧٥ على ان العثمانيين كانوا أكثر جلداً من أشراف بولونيا على اطالة الحرب ومع انتصارهم عليهم رضوا بمصافاتهم ومصالحتهم على قاعدة الشروط التي أجابهم اليها ملكهم

وتوفي كبريلي احمد زاده وقد أضاف الى السلطنة أملاكاً جديدة مع ان جيوشها مكسورة . على ان أوكرانيا صارت الى روسيا بعد ذلك بزمان وجيز ولما ضعف شأن أسرة كبريلي وولى الصدارة رجل ضعيف من غير أفرادها زادت سرعة سير السلطنة في طريق الشقاء والانحطاط وحالف الانكسار جيوشها في كل مكان . وكانت العلاقات بين النمسـا والمجر في هذا الاوان قد زادت فتوراً وأخذت الاولى منهما تحرش بالثانية وتتشدد في معاملتها وكان الذين يدينون بالمذهب البروتستانتي من أهل المجر يكرهون تنطع اليسوعيين واضطهاد الـكاثوليك لمن خالف مذهبهم ولذلك نشأت المؤامرات واقيمت اسواق التعذيب للمتآمرين من المجر على ساق وقدم وكل هذا لم يكن ليزيد المجر الا كراهة في النمسا . وعلم الناس ان أعيان المجر يؤثرون سيادة العثمانيين على سيادة المتنطعين المتشددين من الـكاثوليك وكانت حكومة الاستانة على علم تام بما جريات الامور وحقائق الاحوال ونشأ في عاصمة السلطنة حزب حرب قوي طائش الرأي غير بصير بالامور طلب محاربة النمسا والزحف على فينا في وقت هو أحسن الاوقات للاعتماد على تعضيد المجر ومؤازرتها . فانتهز الصدر الاعظم الجديد قره مصطفى هذه الفرصة السانحة للقضاء على اسرة الهابسبرج المتقوية قضاء

مبرماً فزحف شمالا في سنة ١٦٨٢ على رأس جيش عظيم جداً مؤلف من ٤٠٠٠٠٠ عليهم بعض ضباط من الفرنسيين وفيهم مهندسون منهم أرسلهم لويس الرابع عشر لانه كان يكره النمسا كراهة شديدة ويود لو تسحق اسرتها الامبراطورية سحقاً وتذهب ريح النمسا ويمحق أثرها . وظهر كأن النجاح من نصيب الترك وكان الاوربيون كما هي عادتهم على غير استعداد لمقابلة القوة بمثلها وذلك انه كان من عادة أمراء اوربا بمجرد أن يروا الترك عائدين الى بلادهم منصرفين عنهم أن يفرقوا مجتمع جيوشهم ويفصموا عروة كتائبهم ويهملوا شأن حصونهم ومعاقلهم ثم يتفرغون للتشاحن والتطاعن والاختلاف فيما بينهم غير حاسبين لعودة الترك حساباً . ولذلك لم يكن بين أمراء اوربا من اعتد لملاقاتهم وهم قادمون بقيادة قره مصطفى غير كارلوس اللوريني الذي قاتل في موقعة سانت جتثارد برفقة مونتكوكولي . على أنه لم يكن ليستطيع أن يحشد أكثر من ٣٣ الف مقاتل وهم قليلون بالنسبة الى جموع الاتراك العثمانيين ولا تكفي بقيتهم (بعد أخذ بعضهم لحراسة المعاقل والحصون) للوقوف في وجه الاعداء برهة من الزمان . وقد كان يكون انتصار الترك محققاً لولا تحالف الامبراطور النمسوي ليوپولد وسوبيسكي الذى جعله البولونيون اذ ذاك ملكا عليهم . وقد تعاهد الملكان وعقدا الخناصر على الاتحاد والعمل معاً وأقسما الايمان المغلظة أن لا ينفرط لهما عقد ولا تحل لهما رابطة ولو أراد البابا نفسه ذلك وقد أقسما هذه الاقسام أمام مندوب البابا ليكون للقسم صبغة دينية . ولكن ساعد الملكين على عدم الانصياع لامر البابا اذا أراد التفرقة بينهما مع وجود تمثل له من غرائب التاريخ

وكان جان سوبيسكي اثناء زحف الصدر الاعظم على فينا لا يزال في بولونيا مع انه قطع العهود على نفسه مع الامبراطور ان يكون في عونه . واذ قنط هذا وحاشيته من دنوه بجيوشهم وقد صار العدو على الابواب هرب الى بافاريا وكانت فينا على شر ما تكون مدينة خرج منها ملكها وتخلى عنها خواصها ضعيفة غير محصنة لا حول لها ولا قوة ولا [illegible] امام قوم كالاتراك عرفوا بالمهارة في أعمال الحصار . ولا نبالغ اذا [illegible] انها كان [illegible] الآلات اللازمة لترميم حصونها المتهدمه وهذا نهاية في فساد [illegible] أهل فينا قد كتب الله لهم السلامة على يد قره مصطفى [illegible] فانه [illegible] لم تعد [illegible] في الزحف ولو كان ماضي الامر [illegible] العمل صحيح [illegible] الوثبة لدخل عاصمة الامبراطورية الرومانية

المقدسة على أهون سبيل . ولكن هي الحماقة وعمى البصيرة وفساد الرأي وسوء التدبير يجر على الدول أشأم النتائج ويفقدها فرصاً هيهات ان تعود . وذلك ان أهل فينا أفادهم تأخر قره مصطفى وصاروا في فسحة من الزمن تمكنوا فيها من اتخاذ الاهبة



مقابلة ليوبولد امبرطور الماليا وسوبسكي ملك بولونيا قرب فينا سنة ١٦٨٣

واعداد العدة للمقاومة بزعامة الكونت ستاهرمبرح الذي نفخ في السكان روح الغيرة والنخوة فاسرعوا على بكرة أبيهم الى العمل في ترميم الاستحكامات واصلاح الحصون بهمة لا تعرف الملل وعزيمة لا يزعزعها الكلل . والف تلاميذ المدرسة الجامعة وأعضاء النقابات الصناعية من انفسهم جيشاً وأخذوا يتدربون على الحركات العسكرية

والفنون الحربية بعزيمة الراغب وهمة الوطني . وكان سكان المدينة عند قدوم الترك قد هبط عددهم الى ٦٠٠٠٠ (لهروب اكثر من نصفهم خوفاً) فمن هؤلاء تقلد السلاح للدفاع عشرون الفاً وقفوا لصد الترك عن عاصمة بلادهم وقصبة مملكتهم وحمايتها مما أصاب ما حولها من القرى والبلاد التي استولى عليها العثمانيون وجعلوها طعمة للسيف والنار . ثم صدرت الاوامر بحرق ارباض فينا حتى لا تكون ردءاً للعدو المهاجم وابتدأ الحصار في الرابع عشر من يوليو وسقطت قرية «ليوبولد ستاد» الواقعة على جزيرة في الطونة قريبة من فينا في يد الترك فاضرموا فيها النيران وأخذ العثمانيون يشددون الهجوم وكلما هجموا صدوا أو اقتربوا ردوا وكان أهل فينا يفسدون على الترك ألغامهم التي كانوا يريدون بها هدم الاسوار . على ان حسن دفاع السكان الشجعان لم يمنع الترك من التقدم قليلاً قليلاً والنجاح شيئاً فشيئاً وكان ستاهرمبرج يرى ويعلم ذلك من مرقبه بأعلى كنيسة سان استفان وملء قلبه الاسى والاحزان

وكان أهل فينا بما لديهم من السلاح الجيد يردون الترك عن أسوارهم مخذولين غير ان هؤلاء كانوا يتقدمون بفضل الالغام كما أن السكان كانوا فريسة الامراض والاوبئة الناشبة وطعمة القحط الذي جاء في أثر تلك الامراض وعز القوت بحيث صار للسنانير قيمة وكان السعيد من وفق الى اقتناصها بعد مطاردتها على أسطح المنازل . وكان النمسويون يعلمون ان جيش النجدة قادم ولكنهم كانوا يتساءلون فيما بينهم هل تراه يأتي في الوقت المناسب وهل عساه ينجح في رد الترك الذين وان كان عددهم أخذ في التناقص الا أنهم كانوا لا يزالون أكثر جنداً وأعز نفراً

وفي السادس من سبتمبر أعلنت السهام النارية اقتراب سوبيسكي فزاد السكان همة ونشاطاً وعظم أملهم بقدوم القائد الشجاع . وكان قد جمع جيشاً من البولونيين والسكسون والنمسويين والبافاريين وغيرهم فكانت جملته خمسة وثمانين الف مقاتل وأسرع الى احتلال موضع يقال له كاهلنبرج به دون غيره يستطيع تخليص المدينة ودفع الاعداء عنها . وكان لافراد جيشه ميزة النشاط بخلاف المائة الالف جندي التي كانت تحت يد الصدر الاعظم فقد كانت وصلت الى حد عظيم من الاعياء والتعب والسآمة بعد مضي شهرين طويلين تحت أسوار فينا معرضين للدغ الجوع وتقلب الاجواء ومتحملين مشقة التعب العظيم والجهد البالغ . وفي العاشر من الشهر سمع أهل المدينة قصف المدافع من صوب كاهلنبرج ولا غرابة فقد كان النضال بين الفريقين قد

قام على ساق وقدم . وهنا لا بد من قلم كاتب ماهر به يمكن الكشف عما كان يخالج نفوس أهل عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة وقصف المدافع يدوي في آذانهم . لا شك انهم كانوا فريسة الهواجس والمخاوف ساعات عديدة وكيف كان يمكن أن لا يكونوا كذلك وقد كان على الموقعة الدائرة حولهم يتوقف مصير دولتهم ومصير الامبراطورية الرومانية المقدسة ومصير أوربا بل مصير العالم أجمع

فلنترك السكان وقد ركبهم الخوف وساورتهم الهواجس ولننظر فيما اتخذه سوبيسكي من الاجراءآت لرد الاعداء عن المدينة

في شروق الشمس من يوم ١٢ سبتمبر حجبت رأس اكمة كاهلنبرج قطعة من تلك السحب الخريفية التي تبشر بيوم صحو وجو دافىء جميل وقد انحدرت تلك السحابة من رأس الاكمة الى سفحها الى غور الارض الى سطح ماء النهر فغشته كأنها نقاب خفيف . وكان الواقف على رأس الاكمة يرى شواظاً من النار تنبعث من برج كنيسة سان اسطفان وتشق كبد السماء علامة استغاثة السكان واعلاناً لطلبهم المدد والمعونة وتلك الكنيسة العتيقة وما شخص منها تبدو مع ذلك للناظرين خارج المدينة كلما تبددت سحب الضباب التي تغمرها من كل جانب سليمة لم يؤثر فيها ضرب مدافع الاتراك على غير هدى . ولما راق الجو وصفا أديم السماء وبدا كل جزء من أسوار فينا واستحكاماتها رأى الراؤون من الخارج ثغرة عظيمة جداً في الاسوار يمكن أن تدخل منها المدينة فرقة كاملة وعلى مقربة من هذه الثغرة عمال الترك ينقرون الارض ويضعون فيها الالغام ليتسع الخرق وتعظم الثغرة والجنود وراءهم في انتظار الامر بالهجوم والاقتحام وقد خلت المضارب والخيام من الضباط والجنود ولم يبق فيها غير حريمهم وعيالهم لان الكل كانوا قد اصطفوا أمام الاسوار صفوفاً استعداداً للاقتحام كما قلنا وخلفوا وراءهم خلاف حريمهم وعيالهم صفوفاً طويلة من أسرى الاوربيين المصفدين في الاغلال ينتظرون ساعة القضاء عليهم هذا فضلاً عن الالوف المؤلفة من الجمال ودواب الحمل مع رعاتها وساقتها مما جعل المعسكر العثماني كأنه مدينة عظيمة مضطربة تارة تتخطفها عوامل اليأس وأخرى تدب فيها حواس الآمال . وكنت ترى ايضاً بقرب قواعد اكمتي كاهلنبرج وليوبولدبرج صفوفاً من العساكر العثمانية واقفة لعسكر اوربا تقاتلها دون الهبوط من الممرات والشقوق التي في جوانب الاكمات وتريد منعها من الانحدار على السهل الذي هم فيه . وكان الاوربيون يرتقون السفح

الغربي البعيد ويبلغون قمته ويريدون الانحدار من السفح الآخر الذي تربص بأسفله الترك لهم فلما بلغوا قمة أكمة ليوبولد برج أحاطوا بكنيسة صغيرة عليها وجعلوا منهم شكل نصف دائرة فلما دقت نواقيس صلاة الصبح كف السائرون منهم عن المسير والمرتقون عن الارتقاء ووقف الكل صامتين خاشعين كأن على رؤوسهم الطير وقد أفسحوا امام الكنيسة الصغيرة (كنيسة مار جريف) مكانا وغرسوا فيه علماً أحمر اللون فيه صليب أبيض وكأنهم يتحدون علم الترك الاحمر الخافق امام مضرب الصدر الاعظم قره مصطفى . ولما خفق العلم الصليبي امام الجمع المحتشد من الاوربيين ضجوا وصاحوا قائلين نقاتل أعداءنا الترك ونجاهدهم حتى نجليهم عن البلاد وكان يخيل للرائي كأن الحروب الصليبية القديمة التي نشبت من أجل بيت المقدس قد بعثت من أكفان الماضي ولا عجب فقد كان الاوربيون والعثمانيون الى عهد قريب لا يرون في الحرب الا عملا دينياً يجري بروح تعصبية . ولما صاحوا صيحتهم عادوا الى السكون والصمت ثم فتحت أبواب حصن مجاور للكنيسة وبرز منه موكب فخم عظيم جليل مؤلف من أعيان اوربا وكبراء وجوه الامبراطورية الرومانية وزعماء المروءة واخوان النجدة وأهل نصرة الصليب برزوا كلهم في أحسن ملابسهم الحربية وفي مقدمتهم راهب طويل اللحية مهيب الطلعة حسن البزة وكان العساكر يخرون ركعاً ويرسمون علامة الصليب وهو سائر وسط صفوفهم يبارك فيهم ويدعو لهم بخير ويداه مبسوطتان ذات اليمين وذات اليسار . ولم يكن هذا الرجل الصالح الا « الكابوشين ماركو افيانو » صديق وكاهن الامبراطور وكان معروفاً بتقواه وصلاحه الى ما يقرب من درجة الاولياء المقربين. وكان لا يفارق العساكر في حروبهم ومحنهم وقد حضر هذه الدفعة على جاري عادته يبث في الجنود روح الاعتماد على الله وليرأس لهم صلاة خاشعة. وكان من جملة الامراء السائرين خلفه ثلاثة اتجهت اليهم الانظار مقدمهم ووجيههم رجل قد جاوز الكهولة قوي العضل مفتول الساعدين عظيم القامة مهيب الطلعة خفيف الحركات حسن الاشارات فصيح اللسان مقصوص شعر الرأس على عادة بلاده التي لا بالشرقية ولا بالغربية أسود الشعر والعينين واللحية وكان حسن هيئته وفخامة منظره يدلان على أنه ملك جندي وجندي ملك ولا عجب فهو قاهر العثمانيين وفاتح خوكزم الشهير حنا سوبيسكي

وكان على يساره ابنه الشاب الامير يعقوب على رأسه الخوذة وفي صدره الزرد وفي منطقته السلاح الحديث والقديم وكان على يمين سوبيسكي الهمام العظيم والبطل

الـكريم كارلوس اللوريني سلف البيت المالك في بلاد النمسا . وسار وراء هؤلاء الثلاثة جم غفير من كبار أمراء البيوتات الجرمانية . وكان بجوار لويس البادني شاب نحيف الجسم متوسط طول القامة حاد العين نافذ النظرة وهو الامير يوجين دوق سافوا الذي كثر ما قاد الجحافل الى النصر وساق الـكتائب الى الظفر وتوج باكاليل المجد رؤوس الجنود وعقد النجاح على الاعلام والبنود . وكان مسلحاً بسيف يقاتل به في المعركة المقبلة هذه التي قتل فيها أخوه . وقد صلى بالناس الكاهن ايفانو المشار اليه ووقف معه على مذبح الـكنيسة ملك بولونيا الآنف الذكر وكان يختلط بصوت المرتلين قصف المدافع التركية من بعيد على نحو غريب ودوي عجيب

وبعد ان بارك الحبر الاعظم الملك وجنوده أنعم سوبيسكي على ولده بلقب فارس واجريت الحفلة والصيغ المعتادة في مثل هذا المقام وقد أمره أبوه بالنسج على منوال فارس الفرسان الحاضر في هذا المقام كارلوس اللوريني . ثم وقف ملك بولونيا خطيباً في جنوده البولونية بلسانهم وقال ما معناه :

« أيها الشجعان الاماثل والجنود البواسل والاخوان والافاضل

«في ذلك السهل الذي ترون تجدون أعداءنا وقد باتوا في العدد أضعافنا وهم اكثر مما كانوا في موقعة خوكزم حيث وطأنا هاماتهم بسنابك الخيل واكتسحنا صفوفهم اكتساح السيل . نعم انا نقاتلهم هنا على ارض أجنبية ولـكن اعلموا علم اليقين انا بالحقيقة نقاتلهم على ارض الوطن وانا بدفعهم عن فينا ندفعهم عن وارسو وكراكاو وليس دفاعنا اليوم دفاعاً عن مدينة فذة ومكان واحد ولكنه دفاع عن النصرانية باسرها والمسيحية بحذافيرها وما فينا الا درء المسيحية وحمى النصرانية . الحرب حرب دينية وكفى . قد دعي لجنودنا وسلاحنا بخير ومن مات منـا فله الجزاء الاوفى . ألا وانكم تدافعون لا عن ملـكـكم هذا الضعيف الماثل بين ايديكم بل تدافعون عن امر ملك الملوك الباقي فانه بعنايته ولطفه وفق سيركم وسـدد خطاكم حتى ارتقيتم هذه الذرى وحتى اصبح الانتصار بارتقائكم هذا المـكان في قبضة يدكم . ألا وان عيون الاعداء موجهة لـكم فاذا اعتصموا بالوديان فاناشدكم ان تجعلوها قبورهم ومثواهم . هذا وليس عندي من الاوامر غير امر واحد : سيروا في أثري وتعقبوا خطوي فالوقت قد حان للشبان البواسل أن ينعم عليهم بالقاب الفروسية »

وقد اعتد الصدر الاعظم من الجهة الاخرى للواقعة المقبلة على نحو شائف النحو

الذي اتحاه أعداؤه الاوربيون . فقد زعموا انه قتل الالف الاسير النمسوي صبراً وكانت غاليتها من النساء اللواتي اتخذهن الترك متاعاً ولما انفضت سوق الذبح أخذ يعبيء رجاله تعبئة الحرب والطعان فعلم حنا سوبيسكي علم اليقين انه غريب عن فنون القيادة بعيد عن المعرفة بأساليب الحرب ورياسة الجنود وتسيير العساكر فامتلات نفسه ثقة بأنه عما قليل يصيب من النجاح والفلاح ما يصيب مثله أمام مثل قره مصطفى الاحمق. ومرت ساعات عديدة والترك يحاربون حرب الابطال ويقاتلون قتال الرجال لانهم مهما قيل فيهم لا يوصفون بالجبن ولا يعرفون بالوهن والخور والقعود عن مقابلة الاخطار . على أن ثبات الجنود البولونية وحمية العساكر السكسونية والباڤارية وحصافة رأي القائد المدرب والزعيم المحنك سوبيسكي خصوصاً جعلت النصر في جانب أعداء الاتراك العثمانيين وتدفق سيل الجموع الاوربية على معسكر الاجناد العثمانيـة . فحصل الاضطراب العظيم والفزع الكبير ونكبت هذه الدفعة راية الهلال أعظم نكبة وحمل الصدر الاعظم بين قومه اللائذين بالفرار وكان تارة يبكي بالدمع المتناثر واخرى يتحسر على تعاسة جده العاثر وثالثة يلعن ويندد ويلقي تبعة الانكسار على هذا وذاك . وهكذا تبددت جيوش الصدر الاعظم كما تتبدد الغيوم الرقيقة في اليوم المشمس الشديد . فاما الانكشارية التعساء الذين أهملهم اخوانهم وتركوهم في الخنادق فقد وقعوا في أيدي الاوربيين فقتلوهم صبراً على بكرة أبيهم وكان مما غنمه أعداء الترك اكثر من ٣٠٠ مدفع و ٩٠٠٠ صندوق من الذخائر و ١٠٠٠٠٠ ثور و ٢٥٠٠٠ خيمة ومليون رطل من البارود . وكان جزاء الصدر الاعظم على انهزامه الاعدام لان الترك كانوا كاهل قرطاجة يجازون قوادهم المقهورين الجزاء الاوفى

على النحو السالف البيان فرج الله عن كربة أهل فينـا مرة أخرى وسلمت من أيدي العثمانيين ولم تكن لترى بعد ذلك أعلام الترك وبنودهم وخيامهم من مرقب كنيسة القديس اسطفان . هذا وليس من المفيـد البحث في حالة فينا وأوربا لو كان الترك قيض لهم الاستيلاء عليها. نعم كان يكون تغير مجرى التاريخ الاوربي أمراً مرجحاً ر[illegible] ماذا كان عسى الامر يكون اذا لم يستطع العثمانيون الاحتفاظ بها وهم ضعفاء وأوربا [illegible] كثير من مهرة القواد العظام . لو كان الاستيلاء عليها بواسطة محمد الفاتح لكان حفظه [illegible] من البديهيات ولو اجتمعت سائر دول الارض على انتزاعها منه على أن محمداً كان في الفترة التي نذكر تاريخها قد مضى على موته قرنان من

الزمان ولم يكن على عرش القسطنطينية اذ ذاك من هو جدير بلبس زرده وانتضاء سيفه. نعم كانت الامة العثمانية في آخر القرن السابع عشر مجدبة من السلاطين المهرة والقواد العظام الذين باستطاعتهم تأديب مونتكوكولي وكارلوس اللوريني والبرنس أوجين ومارلبروه وكان السلطان الذي مضى على جلوسه عند ارتداد قره مصطفى عن فينا خمسة وثلاثون عاماً مفعمة بالحوادث نشيطاً ولكن نشاطه كان في ميادين الصيد والقنص لا في مواطن الطعن والضرب والغزو والفتوح

كان عهد محمد الرابع العظيم الامد (١٦٤٨ — ١٦٧٧) برزخاً بين عهدين : عهد الفتوحات الباهرة والانتصارات العظيمة والتشريعات الادارية والحكومة الجليلة وعهد السلاطين الضعاف الذين كانوا يتقلبون في مهاد الكسل والراحة بالسراي السلطانية. وفيما كانت الجنود العثمانية في ظل أعلامها مشتغلة بفتح كريد كان سلطانهم محمد الرابع يشتغل بقنص الغزلان البرية في حراج الاولمب ولاريسا وطرنوه وكان يسير بمعية السلطان في صيده وقنصه بالاماكن البعيدة المترامية الامراء والقواد والوزراء والسفراء. وهكذا انتقلت حفلات السراي السلطانية ومهرجاناتها ومآدبها وملاهيها الى سفوح الجبال وأكباد الصحراوات والقفار وكانت تقام الاكشاك في الحراج الانقف ولا يترك مشهد من مشاهد الترف ولا واسطة من وسائط الاستمتاع الا نقل اليها بسرعة الجان فمن ردهات غشتها الابسطة والمطرزات الاوربية الى قاعات أنيقة حلتها المزركشات الهندية الى غرف بديعة تزري بقصور البوسفور والاستانة. وكان السلطان محمد الرابع المفتون بالصيد والمناظر الطبيعية الشائقة كثير التنقل بين بروصه وجبال الاولمب الاسيوية وسهول طرواده وسفوح ايدا وضفاف الميندر وارباض ساردیس ولكن أعز المواضع وأجمل الجهات وأحبها اليه كان موضع يقال له جامبولي على بعد خمسين ميلاً من شمال أدرنه وآخر يقال له طرنوه . وكان اذا حل بمكان أو ارتحل عنه خرج اليه سكان ١٥ جهة من الجهات المجاورة لان الناس كانت كلفة برؤية المواكب والمهرجانات والاحتفالات التي كانت تقام له على نحو يشبه ما كان يجري في بلاد اليونان القديمة وبلاد التتر.وكانت مواكب أهل الصناعات والحرف حيث يعرض الناس مصنوعاتهم ويقوم الصناع منهم بصناعتها على مرأى من المتفرجين ومسمع من الامور الشيقة والمشاهد الممتعة التي لا تمل العين مشاهدتها والتي يقترن فيها عرض الظريف والحسن باحداث المستملح من الاشارات وتمثيل المضحك والمستغرب من العادات

على ان أهل الاستانة كانوا يكرهون هذا السلطان وقد بلغ رجال حكومته من نفاذ الكلمة حداً جروا به على الدولة المقت والكراهة والانتقاد المر . ففي عهده أهين القنصل الفرنسي أعظم اهانة فسب ووكز وضرب بالنعال وفي عهده طرد مندوب روسيا من حضرة أولياء الامور أفظع طرد فرفس بالارجل حتى ازيح خارج القاعة وفي عهده ضرب مترجم الدولة جملة مرات بالسياط والعصي . وكان وزراء الترك لا يقومون مرحبين بسفراء الدول الاجنبية وكانوا يعاملونهم أسوأ معاملة . ولم تكرم الدولة العثمانية مثوى الاجانب الا منذ القرن التاسع عشر . ولما كان الصدر الاعظم يصر على أن لا يقوم اجلالاً لسفير من سفراء الدول وكان في هذا من الاهانة ما فيه لمقام السفير ودولته اهتدى المهتدون الى حل للمسألة فيه رضاء الطرفين وذلك بان يدخل الصدر الاعظم والسفير من بابين متقابلين في وقت واحد فلا يتجشم أحدهما مشقة القيام اجلالاً لصاحبه

ولما هزم الترك في فينا لم يشاءوا أن يجلوا عن المجر قبل أن يضربوا ملك بولونيا المغتر بقوته ضربة ساحقة . وذلك انه تبعهم وسار في أثرهم غافلاً عن شجاعتهم التي لا تفارقهم ولكنهم ألقوا عليه درساً قاسياً في باركاني لم ينسه طول حياته . على ان ما أصاب ملك بولونيا علم النمسويين الاحتراس والحذر فتأنوا في حرب الترك واتخذوا الاهبة كل مرة حتى اجلوهم شيئاً فشيئاً عن املاكهم الشمالية . وكان النمسويون يسترجعون المدينة بعد المدينة والمكان في أثر المكان وفت في عضد الترك الخذلان الذي أصابهم في موهكس ذلك المكان الذي شرف قدرهم فيه في الزمن السابق الهمام السلطان سليمان وأخذت منهم مدينة بوده سنة ١٦٨٦ بعد أن كانت تابعة لهم تعترف بسيادتهم ١٤٥ عاماً . وتدفقت سيول الجنود النمسوية على بلاد المجر حتى استولت على بلغراد سنة ١٦٨٨ ثم دخل لويس البادني بلاد البشناق وغزا البنادقة دلماشيا وأخذوا حامي كنديا . وزوسيني بلاد المورة . وفي هذه الحرب نسف البنادقة معبد البارثينون [illegible] بأثينا وكان البيزنطيون قد جعلوه كنيسة ثم جعله الترك مستودعاً [illegible] ولم يكن للترك من عدو غير الروسيين والبولونيين فاما غيرهم فقد امعنوا في [illegible] أوربا في الضعف

[illegible] كان ذرعه بتفقم الاحوال ولى وجهه شطر أسرة كبريلي عساه يجد من ابنائها من ينشط الى خدمة الدولة كاسلافه العظام فعين كبريلي زاده مصطفى

أخي احمد كبريلي الاشهر صدراً أعظم سنة ١٦٨٩ فشمر عن ساعد الجد وجعل مفتتح اعماله افشاء العدل ونشر الامن بين النصارى من رعايا جلالة السلطان. وهكذا تأجل الى حين هياج الصقالبة والاروام في تركية أوربا . وكان موصوفاً بالعقل وسعة العلم والاطلاع وشديد الاخلاص فكان اذا لم يستطع الافصاح عما بقلبه التزم الصمت فلم يلجأ الى النفاق . وكان مثل اخيه يحسن الحكم والسياسة والادارة ولا يحسن الحرب والقيادة على انه قاد العثمانيين ببسالة ضد اعدائهم النمسويين فرد الاوربيين واستعاد بلغراد وأزاح الحدود العثمانية الى نهر الساف. على انه قتل في موقعة سلانكمن سنة ١٦٩١ وتفرق جيشه شذر مذر . وجلس بعد ذلك في منصب الصدارة العظمى رجلان من رجال اسرته ولكنهما كانا دونه ودون محمد واحمد كبريلي مقدرة ومهارة. على انهم جميعاً اخلصوا الخدمة لدولتهم وملتهم وسلطانهم ولاشك ان الخمسين سنة التي قضوها في ظلال منصبهم الجليل كانت بمثابة مرساة ثقيلة منعت سفينة الدولة من ان يجرفها تيار الحوادث . وفي سنة ١٦٩٥ ذكر السلطان الجديد مصطفى الثاني أعمال أسلافه العظام فهمّ بالسير في اثرهم والنسج على منوالهم ونفثت فيه آثارهم وأعمالهم روحاً جديدة من النشاط لم يعهدها العثمانيون في سلاطينهم من زمان بعيد.لذلك أخذ على عاتقه مهمة قيادة الجنود ومحاربة النمسويين . فلما رأت رعيته منه ذلك فرحت به واستبشرت ورحبت بتجديد معالم المجد القديم وتكاثرت الجموع التي سارت خلفه في ظلال اللواء العثماني الكريم. على ان الحماس وحده لم يكن كافياً اذ ذاك لاحراز النصر لان البرنس أوجين كان يقود النمسويين وكان الحذق في القيادة غائباً عن ذهن السلطان ومن حوله من الوجوه والاعيان. فكانت موقعة زنتا سنة ١٦٩٧ من المواقع الفاصلة قتل فيها عشرون الفاً من العثمانيين وأغرق عشرة آلاف وهم يولون الادبار . وقد بددت بهذه النكبة أحلام السلطان ولم يعد يفكر في استعادة مجد آل عثمان

وقد توسطت انكلترة في شخص سفيرها في الاستانة اللورد باجت ورضي الباب العالي بتوسطها وكانت النتيجة صلح كارلوفتس وهو صلح عظيم الاهمية في التاريخ التركي . ففي مدينة كارلوفتس اجتمع مندوبو تركيا وروسيا لاول مرة في مجلس سياسي اوربي وفيه قبلت الدولة العثمانية مبدأ تداخل الدول المحايدة في شؤونها وخصامها مع أعدائها . وبمعاهدة كارلوفتس سنة ١٦٩٩ احتفظت النمسا بترانسلوانيا

والمجر الى الشمال من ماروش والغرب من تيس مع غالب سلافونيا واستعادت بولونيا بادوليا وكامنيك واحتفظت البندقية بدلماشيا والمورة وعقدت روسيا هدنة صارت بعد ذلك صلحاً . وبعد ١٧ عاماً نشبت حروب جديدة فاستولى البرنس أوجين على بلغراد وبواسطة معاهدة صلح بساروفتس (سنة ١٧١٨) الذي توسطت فيه انكلتره ايضاً اعترف بحق النمسا في بقية بلاد المجر وصارت حدود الدولة العثمانية من الجهة الشمالية منطبقة على الحدود التي رسمت لها الى ان كانت معاهدة برلين

ومن التاريخ المذكور صارت السلطنة العثمانيـة من الدول التي لا يحسب لها في الحرب حساب وصارت جيوشها لا تخيف كبيرات الدول الاوربية ولا تقيم لها وزناً وذهبت هيبتها من القلوب وانصرفت همة قوادها وساستها لا الى تهديد جيرانها بل الى منع تدفق سيول النمسويين والروسيين الجارفة . بل صارت تركيا مهمة من حيث انها من اكبر العوامل في سير السياسات الدولية وأخذت بعض الدول تدافع عنها في ميدان الحرب ومجالس المفاوضات السياسية وأصبح اهتمام ساسة الترك بايجاد محالفين تتفق مصالحهم مع مصالح الدولة أكبر من اهتمامهم بمقاتلة اعدائهم واتخاذ الاهبة لمقابلتهم في ساحات الوغى . وفي قص حوادث المائة والخمسين سنة الباقية من تاريخ تركيا يدور الحديث على محور تعديات روسيا ووقوف انـكلتره بالسيف والقلم في وجه مطامعها كما يدور حول التغييرات الداخلية التي أصابت السلطنة العثمانية مثل انفصال القطر المصري عنها ومجهودات السير ستراتفورد كانبج في اصلاح ادارتهـا ونشأة وغير واستقلال ايالاتها النصرانية وغير ذلك مما نذكره بالاجمال حتى تكون بقية الصحف التالية ختام المقال

الفصل الثالث

نهضة روسيا وحروبها مع الدولة ١٦٩٦ — ١٨١٢

ظهور المسئلة الشرقية وتطورها

أصل الروسيين — نوفجرود — روريق — كيف — تنصر الملكة أولغا — فلاديمير الاعظم — موسقو — غارات التتر — باطو في ليجنتز — تتر الرهط الذهبي — اسكندر نوسكي — ايفان الاعظم — العلاقات السياسية بين الدولتين الروسية والعثمانية — أول عهد البوسفور بهجوم الروسيين — ايفان الفظيع — بعثة استراخان — بطرس الاعظم — حماية السلطان لشارل الثاني عشر ملك السويد — الاحاطة ببطرس على نهر البروث — صلح بلغراد — معاهدة قينارجه — كاترينة العظمى — زيارتها للقريم — حصار أوحاكوف — سواروف — معاهدة ياش — تلست — السير روبرت ادير — ستراتفورد كانتج — معاهدة بوخارست — تأثيرها في ارتداد نابليون عن موسقو

بينما الدولة العثمانيـة تشب وتترعرع وتملأ العالم فتوحات وتغزو وتمد رواق تسلطها على الاقطار والآفاق في السنين المتعاقبة والاحقاب المتواليـة اذ بالشعوب القاطنة في سكثيا وسرماتية — حسب تسمية قدماء اليونان — تأخذ العدة والاهبة لم شعثها وتوحيد قوتهـا لتناوىء العثمانيين وتمنع تقدمهم . وكانت السهول والبراري المعشوشبة الواقعة على سواحل البحار المتاخمة لاملاك الاتراك من الشمال تحت حكم أمراء عظام مروا بممالـكهم بأدوار التطور والارتقاء قبل أن يتصل أرطغرل بسلطان قونية بقرون عديدة . وما زالت هذه الشعوب تشب وتقوى حتى حصل لها من القوة وشدة البأس ما كان فيه الخطر الشديد لعز أبناء عثمان

وتغشى الظلمات التاريخ القديم للاقاليم المشار اليها كما هي العادة ويصف مؤرخو بيزنطية سكانها بالقذارة الشديدة والقسوة المتناهية وارتكاب ضروب الوحشية في حروبهم ويقولون أنهم كانوا يتخذون جماجم قتلى أعدائهم اقداحاً لتناول الشراب . فاما غير مؤرخي بيزنطية فيصفونهم بالدعة ويزعمون أنهم كانوا يعيشون مرتاحي البال في هناء حال وصفاء زمان ويقولون فيهم ما قاله شعراء اليونان الاقدمين وهو أن أهل الشمال في رفاهة ورخاء تمتد بهم الآجال المهنئة الى أكثر من الف عام . ويقول هذا الفريق من المؤرخين أيضاً ان هؤلاء الاقوام كانوا حسني الشكل يحملون آلات

الطرب لا آلات الحرب والكفاح ولا يعلمون أن من الحديد تتخذ السيوف لقتل النفوس وازهاق الارواح . على أن السياح قلما يعلمون حقيقة الحال في الاراضي الغربية ولذلك فلا بد لنا من الاعتقاد بأن الزوار الاقدمين الذين وطأت أقدامهم البلاد التي عرفت فيما بعد بالبلاد الروسية اما توهموا أن البلاد كما وصفها خيال الشعراء وأرباب الوهم والمبالغة أو أنهم التقوا بقوم من أهل البأس والشدة الذين يحملون الباط الثقيلة دفاعاً عن النساء والولدان . فلم يكن سكان روسيا بالوحشية والقذارة التي ذكرها مؤرخو بيزنطية ولم يكونوا بالرفاهة والهناء الذي صورته أقلام فريق غيرهم من المؤرخين والشعراء

وكانت في البراري المعشوشبة وممرات جبال تلك الجهات الشمالية تروح المتاجر وتجيء من زمان بعيد وكان نهر الاتل ـ فولجا ـ أهم واسطة من وسائط الانتقال بين الشرق البعيد ومناطق بحر بلطيق ويتصل الاتل بخاليج فتمده بحيرات ونهيرات فتنساق المتاجر من بحر الخزر الى بحر بلطيق على أهون سبيل ولذلك قامت في أثناء هذا الطريق مدينة نوفجرود فكانت محلاً لالتقاء العروض والمتاجر وصارت عاصمة للدولة الروسية التي تمخض عنها الزمان . ومن السهل تقدير منفعة نهر كنهر الاتل لبلاد كالبلاد الروسية لان مهمته ليست قاصرة على ري اقطار شاسعة وجهات مترامية الاطراف بل هو في ذاته من أصلح الانهار للملاحة فانه بطيء السير سهل الانحدار هادىء التصريف . وما الفرق بين ارتفاع جهات منابعه وجهات مصباته (وطوله ٢٥٠٠ ميل) غير ٦٠٠ قدم . على أن عظم طوله وهدوء تدفقه ليسا السببين الوحيدين لحسن انتفاع السفن الشراعية قديماً والسفن البخارية حديثاً به في التجارة وذلك لان نظرة واحدة الى الخريطة تكفي لان تريك أن بين مجاريه العليا وبين نهري فولكهوف والدنيبر شقة ضيقة من الارض اليابسة بحيث تصير التجارة سهلة الانتقال من بحر الخزر الى البحرين الاسود والابيض المتوسط

ومنذ أكثر من الف سنة كان سكان هذه المنطقة العظمى موضوع تهديد خطر قبائل الخزر الذين كانوا قد أتوا من بلاد القوقاز للاستيلاء على أملاك المسلمين وكانت قبائل النورثمن في غضون ذلك قد غزت سكان المنطقة المحيطة بحيرة المن وفرضت عليهم الجزية . وكانت هذه القبائل تسمى قبائل الروس وقائدها يدعى روريق لحق به اخوته سنة ٨٦٢ فكان هو وقومه واخوته سبباً في نشر الامن والسكينة والنظام

بين ربوع الاقوام الذين احتلت بلادهم

وكانت نوفجرود عاصمة لروسيا بعد وصول روريق مدة خمسين عاماً وانفتح بهبوط ذلك الزعيم عهد بطولة وفروسية عظيم

ثم اتخذ ايغور بن روريق مدينة كيف عاصمة له وارتقى فيها عرشاً وظلت قصبة للبلاد وحاضرة عظمى مدة ثلاثة قرون . ثم دخلتها الديانة المسيحية في القرن العاشر وقيل بل دعا اليهــا القديس اندراوس قبل ذلك بدهر طويل . وتسلمت أولغا أرملة ايغور زمام الاحكام بعد وفاة زوجها حتى بلغ ولدها سن الرشد وفي عهدها امتد رواق النصرانية في طول البلاد وعرضها . وفي سنة ٩٥٣ لما انتشر الهدوء والسكينة وامنت أولغا على البلاد من الفتن الداخلية والغارات الاجنبية سافرت عن طريق الدنيبر والبحر الاسود الى القسطنطينية حيث جرت لهــا حفلات التعميد الشائقة وسماها القساوسة هيلانه وكان ذلك برعاية واشراف الامبراطور (قسطنطين بورفيروجنتاس)

أما فلاديمير الاعظم حفيدها فانه تعمّد بعد ذلك بثلاثة وثلاثين سنة في مدينة خرسون القريبة من سباستبول وقيل أنه كان يحاصر خرسون . فلما استعصت عليه نذر لله أن يعمّد في حوض كنيستها القديمة اذا هو أفلح في الاستيلاء عليها وقد فتحت وبرّ بوعده ولا يزال الى اليوم المكان الذي عمد فيه فلاديمير يزار . وقد أخذ هــذا الملك بناصر المسيحية ـ الدين الجديد ـ فاكثر من بناء الكنائس والمدارس وذكر جبون « ان الناس كانوا يعمدون في مياه الانهر بالالوف وكلهم فرح باعتناق دين رضي باعتناقه الامير فلاديمير وحاشيته من الاشراف » وكان يعتبر العاصي عن التنصر خائناً لبلاده ومولاه

على أن أعقاب فلاديمير لم يشربوا كأس الحكم والسلطة صافياً وسرعان ما صارت المملكة امارات متفرقة يفري البعض منها في أحشاء البعض الآخر وتسيل دماء أمرائها على مذابح الرغبة في الانفراد بالسلطة والنفوذ . هذا الى أن عدوا مناجزاً من الامم المتبربرة لا يفتأ يقاتلهم جميعاً ويصليهم حرباً لا تنقطع نارها ولا يخمد أوارها . وفي القرن الثاني عشر كانت العاصمة الاسمية للبلاد مدينة فلاديمير على نهر محصور بين الاوكا والولجا وكانت (نوفجرود) و (كيف) من أعمر البلاد وأعز القرى وكانت قد تأسست مدينة (موسقو) سنة ١١٤٧

وظلت الامارات الروسية في شقاق وعراك مدة قرنين من الزمان . وبينا هي

كذلك اذ هب عليها ريح مداهم من الجنوب الشرقي. وذلك ان داهية القرون وخوف الزمان جنكيزخان كان قد قذف بقسم من جيوشه لالقاء الرعب في قلوب القبائل التركية الخيمة على ضفاف بحر الخزر الغربية . واجتاز جيش الطاغية التتري بلاد جورجيا وتخطى جبال القوقاز حتى أشرف على بطاح روسيا المتاخمة لبحر قزوين . هنالك استقبله أمراء روسيا بجيش جمعوه لصده ولكنه مزقه شذر مذر على ضفة نهر صغير يصب في بحر ازوف بقرب المدينة المعروفة الآن بماريوبول وأمعن الغزاة في بلاد أعدائهم بعد أن اجتازوا نهر الدون ونشروا الخراب والفزع في سائر الارجاء وملأ أهل روسيا الاصليين الاعتقاد بأن التتر عما قليل يعودون الى اجتياح بلادهم وما هي الا ١٢ سنة حتى دهمهم جيش آخر من التتر مريع . وذلك ان باطو حفيد جنكيزخان صب على الروسيين سوط عذاب وقذف عليهم بجيش ذبح رجالهم وأشياخهم ونساءهم وأطفالهم ذبح الاغنام ثم جعل قراهم وبيوتهم ومساكنهم طعمة السيف والنار حتى صارت موسقو وفلاديمير اطلالا دارسة يخرج منها دخان الحريق الذي أتى عليها فجعلها أثراً بعد عين . وجمع الروسيون الجيوش لصد الغزاة فما افلحوا وما عادوا بغير الوهن والتكسير ورأت نوفجرود ما أصاب أختيها فوطنت النفس على خراب محقق وفناء اكيد. الا ان باطو لسبب لايعلمه الا الله لوى عنان جواده وعاد نحو الجنوب الى سهول نهر الدون . وفي السنة التالية ألبس جنوب روسيا لباس الذل والخوف ثم عاد أدراجه . وفي سنة ١٢٤٠ ظهر امام كيف التي انهكتها الحروب الاهلية ولكنها مع ذلك لا تزال مطمح أنظاره ومحل طمعه في الاسلاب والغنائم وما هو الا وقت قليل حتى دكها دكا وجعل قبابها البراقة طعمة النيران وقصورها العظيمة الرفيعة العماد أكواماً من التراب ينعق عليها البوم والغربان . اما سكانها فقد ذبحهم ذبح الشياه ومن سلم منهم من السيف لم يسلم من السلاسل والاغلال وغادرها وليس فيها لا جدران [illegible] أثر الحريق شاهد عدل على ما كان لها من عز وشأن في سالف الازمان . وأسرع باطو في السير الى الغرب وبعد أن أصاب انتصاراً باهراً في [illegible] (سنة ١٢٤١) من أعمال مورافيا عاد الى الجانب الشرقي من نهر الاتل و[illegible] ضرب فسطاطه الذهبي

خمدت انفاس روسيا اثناء هذه النكبات المتوالية والغارات المتعاقبة وأصبحت تابعة للتتر عليها جزية الطاعة والرضوخ مدة تنيف على مائتي سنة . ومع أن

الارض الموات أصلحت وغرست والمدن المتخربة رممت وعاد شيء من الطمأنينة الى الصدور الا أن يد التتر الثقيلة كانت شديدة الوطأة على أهل روسيا وما فتئوا بين حين وآخر يتوقعون من التتر غزواً جديداً. وكثيراً ما كانت مخيلتهم تمثل لهم عودة أولئك الجبابرة بشر مثل الشر الذي رأوه في وجوههم ايام باغتوهم بقيادة باطو فتطير نفوسهم شعاعاً ويكادون يصعقون حتى من توهم أنهم قادمون. على أن نير التتر لم يكن ليبقى على أعناق الروس بالرضاء اليهم والتسليم. فالاسكندر نوسكي البطل الوطني العظيم والامبراطور الشرعي نفخ في صدور قومه روح الثقة والامل بانتصاره على أهل السويد على ضفاف النيوا سنة ١٢٤٠ في الموضع القائمة عليه الان مدينة بطرسبرج. وبين عامي ١٣٧٨ و١٣٨٠ جمع ديمتريوس الرابع جيشاً عظيماً لقتال التتر وانتصر عليهم مرتين مع أنه كان عاملا لهم وأميراً من قبلهم ففي موقعة على نهر الدون قتل منهم على ما يقال مائة الف على أن العدو الذي لا تبرأ غلته ولا ينطفىء لهب غيظه وحنقه عاد بالشر على فلاديمير وموسقو سنة ١٣٨١ فخرقها وقتل من موسقو وحدها على ما يقال ٢٤٠٠٠ ولم يعف التتر عن الروس الا بثمن باهظ

على ان أهمية موسقو زادت على توالي الزمان وفي القرن الثاني انتهز ايفان الثالث ـ العظيم ـ فرصة ضعف تتر روسيا الذي نجم عن حروب تيمور وحاول رفع نيرهم عن مواطنيه. وان حكمه لهو بداية عهد جديد في تاريخ روسيا المسيحية الوطنية وذلك انه جمع امارات موسقو ونوفجرود وغيرهما ولاحت بشائر توحيد دولة روسية عظيمة. ثم تزوج أميرة من اميرات القسطنطينية وأعلن حقه في عرش بيزنطية باتخاذه شعارها ـ النسر ذا الرأسين ـ مع شعاره الاصلي وهو صورة القديس جرجس والتنين

ونظم ايفان الكبير الامور وأحكم الترتيبات وأجرى العدل وجعل الضرائب على أساس من العدالة مكين وكان التتر اذ ذاك قد انقسموا الى جملة خانات أو امارات فامارة القريم ممتدة بطول نهر الدون وامارة قازان على نهر الاتل وامارة استراخان على المجاري السفلى له وغيرها من الامارات في الشرق. وفي سنة ١٥٩٢ تم الاستيلاء على مدينة سراي ودمرت تدميراً

وكان ايفان في اول الامر على صفاء ووداد مع الدولة العلية وكان بعض الترك قد ضايقوا تجاراً من المسقوف أتوا اليهم وعاملوهم فلما علم بذلك ايفان الثالث سنة ١٤٩٢ كتب الى بايزيد الثاني واقترح ايجاد الصلات التجارية المتينة بين الدولتين. وبعد

مضي ثلاث سنوات أرسل القيصر أول سفير روسي الى الاستانة

على ان العدوان بين الروس والقسطنطينية قبل استيلاء الاتراك عليها اقدم من هذا وذلك انه في سنة ٨٦٤ ظهر أسطول للروس في القرن الذهبي ولم يرده أهل القسطنطينية على أعقابه الا بصعوبة . وفي سنة ٩٠٦ وصلت الى القسطنطينية جيوش روسية برية وبحرية بقيادة اولج الوصي على ايغور بن روريق وألبست المدينة لباس العذاب والخوف فنهبت واستبيحت وقتل من أهلها خلق كثيرون . وفي سنة ٩٤١ ذهب ايغور نفسه على رأس اسطول واجتاح السواحل وخرب البلاد وقتل كثيراً من سكانها ولم يرده عنها الا النار الاغريقية التي ذاق المسلمون في حروبهم مع اليونان منها الامرين . وفي سنة ٩٧٢ ارسل سوانوسلاف الاول بعثة حربية اخرى الى القسطنطينية فردها عنها الامبراطور يوحنا زمسكيس الذي دحر الروسيين في البلقان ولكنه قتل قبل أن يرى بعينه ارتداد الاعداء الى بلادهم مهزومين . فمن هنا يرى المطالع ان أطماع الروسيين في المدينة الجميلة الواقعة على البوسفور قديمة العهد جداً وانهم كانوا يحلمون بالاستيلاء عليها قبل أن يستقر فيها الترك بقرون عديدة

زاد نفوذ موسقو وزادت عظمتها وقد أتاح الله لها من الروسيين الوطنيين أمراء حريصين ذوي باع في السياسة يحنون الرؤوس احتراماً وخضوعاً للتتر اذا آنسوا فيهم القوة ورأوا من قومهم ضعفاً حتى اذا سنحت الفرصة لم يتأخروا عن مناجزة عدو بلادهم الحرب وكان هؤلاء الامراء لا يألون جهداً في اجتذاب الكنيسة الارثوذكسية ورجال الدين فضلا عن الاشراف والاعيان ذوي النفوذ في البلاد . وتم لهم أخضاع أهل ليتوانيا المعاندين وصار أعقاب روريق يعرفون باسم « أمراء عامة الروسيين الاكابر » . وفي ١٥٥٢ تم اخضاع التتر القازانيين وحملهم على دفع الجزية وبذلك أعترفت أقاليم مساحتها ٣٧ الف ميل مربع بواسع سلطة وسيادة ايفان الرابع جروزني (الفظيع) الذي حكم نصف قرن كله عز وسؤدد للدولة الروسية

وكان تتر القريم أصعب مراساً وأشد بأساً وأصلب عوداً وكانوا يدفعون الجزية لسلاطين العثمانيين ولكنه لم يمد اليهم يد المساعدة في حروبهم مع القيصر وكان الصدر الاعظم [illegible] في هذا الوقت يهتم بتحقيق مشروع طالما فكر فيه المفكرون ولم يخرج من حيز الفكر الى دائرة الفعل والتمام . وهذا المشروع عبارة عن ايجاد طريق [illegible] مائي بين الاستانة وحدود الفرس لتسهيل الاعمال التجارية والحربية وطريق

فاذه ان تحفر ترعة بين نهري الدون والولجا وبها تستطيع السفن السفر من الاستانة في البحر الاسود الى بحر ازوف ثم تمخر مياه الدون وتصل بواسطة الترعة الى نهر الولجا ومنه الى بحر قزوين وحدود فارس . وكانت استراخان الواقعة على مصب الولجا والتي لا بد لانجاح المشروع من استيلاء الترك عليها في يد الروسيين اذ ذاك فارسل الصدر الاعظم جيشاً عظيماً للاستيلاء عليها ولكن الروسيين فرقوه شذر مذر رغماً من مساعدة التتر الذين أصابهم أيضاً ما أصاب الترك . وأرسل القيصر الى الاستانة بعثة تشكو من هذا العدوان . ثم نشأت بعد ذلك العلاقات الودية بين الدولتين ولم تكن روسيا اذ ذاك من القوة بحيث تستطيع التهديد والوعيد واغلاظ القول . وفي سنة ١٥٧١ أي بعد أمضاء معاهدة الصلح بين الترك والروسيين أرسل تتر القريم جيوشاً على موسقو فاخذتها عنوة وجعلتها طعمة للنيران . وكان القيصر قبل هذه المصيبة بعام واحد أخذ يعذب رعيته لتوسمه الخيانة في بعض أفرادها فلما هاجم التتر عاصمة بلاده هرب هروباً مخزياً والتمس النجاة في مختبأ بين أفراد شعبه الذي عذبه وأشقاه

وفي أواخر حكم ايفان الفظيع كانت المحبة الظاهرة سائدة بين القيصر وجلالة سلطان العثمانيين فلما انقضى عهده ومات ضربت الفوضى أطنابها في ارجاء الروسيا وتذابح الامراء على العرش فلم تكن روسيا لتستطيع أن تمد نفوذها في الخارج . وبعد أن تأيد امر اسرة رومانوف زادت مسافة الخلف بين الروسيين والاتراك العثمانيين واشتدت عداوتهما وتنافسهما الطبيعيان الدائمان ولاح شبح الحرب المخيف بينهما وكان التتر شجاً في حلق الروس كما كان القوزاق قذى في عين الدولة العلية وقامت حروب صغيرة بين الدولتين في النصف الاخير من القرن السابع عشر . ففي سنة ١٦٩٦ استولى بطرس الاكبر على أزوف وأوطأ الروسيين سواحل البحر الاسود . على أن صلح كارلوتز ثبط همة الاتراك فلم يبدوا المقاومة اللائقة بهم وتأيد السلام بين الدولتين مدة ثلاثين سنة بصلح أبرم بينهما سنة ١٧٠٠ على أن القيصر في غضون ذلك كان لا يفتر عن تحصين أزوف فقابل العثمانيون عمله باقامة حصون بني قلعة . وشغل بطرس الاكبر عن الكيد لتركيا والاتراك ما دهمه من قتال وعداوة شارل الثاني عشر ملك السويد فلما اندحر هذا الاخير وفر من وجه الروس التجأ الى حمى العثمانيين فاجاروه واكرموا مثواه وأبى السلطان احمد تسليمه لبطرس فشهر هذا الحرب على الدولة غير

مراع حرمة معاهدة صلح الثلاثين سنة . غير انه وجد نفسه وقد أحاط به العثمانيون من كل جانب بجوار نهر البروث ووقع مؤسس عظمة روسيا ورافع لواء مجدها في قبضة قائد جيوش العثمانيين الصدر الاعظم . على أن ذكاء كترينا وحسن حيلتها وما قدمته من الاموال الطائلة للقائد الخائن أخرج زوجها من المأزق الحرج الذي وجد فيه وسلمت روسيا كلها بسلامة بطرس وفك الحصار عنه . وكانت معاهدات الصلح بين الدولتين متعددة ومتوالية . فالتي أبرمت بينهما سنة ١٧١١ تلتها أخرى سنة ١٧٢٠ ثم تمالأ القيصر والسلطان على الكيد لفارس وأرغماها على عقد صلح رابح لهما

مضت سنوات قلائل بعد هذا ثم ساد في أوربا أعتقاد عام بان شمس الدولة العثمانية قد آذنت بالمغيب وانها في اخريات ايامها وكان مرور الزمن لا يزيد هذا الاعتقاد الا رسوخاً. وليس أدل على ثبوت هذا الاعتقاد في أذهان الساسة الاوربيين من تصريح نقولا قيصر روسيا سنة ١٨٤٤ اذ قال للسير هاملتون سيمور في عرض كلامه عن انحلال السلطنة التركية : ها نحن أولاء نشهد احتضار الرجل العليل يعني تركيا . وهو تصريح جاء في أوان كان الرأي العام الاوربي يقول فيه بامكان طرد العثمانيين من القارة بقضهم وقضيضهم واقتسام أملاكهم بين الدول المسيحية

على أن اذلال بطرس الاكبر على ضفاف البروث لم يبرح عن أذهان الروسيين. وكان قياصرة ورعايا روسيا يلتهبون غيظاً وحقداً على الاتراك كلما ذكروا هذا العار . فبطرس الثاني جمع الجموع واتخذ العدة لشن الغارة عليهم ولكن المنية ما امهلته (سنة ١٧٢٧) وأخرت الاحوال تمام انفاذ مشروعه الخطير نحو الدولة الى سنة ١٧٣٦ وفي (مارس) تحركت الجيوش الروسية بأمر الملكة حنة للانتقام من العثمانيين وختم الحرب التي حاولت الدولتان التخلص منها جملة مرات بصلح بلغراد سنة ١٧٣٩ ولكن الدولة الروسية لم تشف غليلها كل الشفاء ولم تنقع غلتها كل النقع لان مواد الصلح لم تكن كافية لاذلال آل عثمان حسب رأيها

ومضت تسع وعشرون سنة ثم عاد العدوان بين الدولتين الى ما كان عليه . ففي سنة ١٧٦٨ سخط الرأي العام في الاستانة سخطاً شديداً على روسيا لاحتلالها بولونيا وسعي قيصرتها كاترينة الثانية في اجلاس خليلها بونياتوسكي ملكا على عرش هذه المملكة التعسة التي أنتهت دسائس الروسيا فيها باقتسامها. وشبت الحرب بين الدولتين والسلطان على غير عدة وأظهر قواد الفريقين المتحاربين ـ الا القائد الروسي

رومانزوف ـ جهلاً وعدم اكتراث فلم يكن من مظاهر الحرب ما يسترعي الاهتمام ويسترعي الانظار غير ظهور الاسطول الروسي على سواحل اليونان بقيادة ضباط من الانكليز وحسن دفاع الترك عن سلسترة سنة ١٧٧٣ وختم صلح قينارجه المنعقد في الحادي والعشرين من يوليو فصول هـذه الحرب . ويلاحظ أن الروسيين اختاروا الحادي والعشرين من يوليو لمحو أثر عار صلح البروث اذ كان في اليوم عينه. وكسبت الروسيا بهذا الصلح مزايا عظيمة اذ اعترف فيـه باستقلال خانات القرم وولايات الدانوب ومع أنها تنازلت عما فتحته استبقت حصونها على البحرين الاسود وأزوف . وكان صلح قينارجه فاتحة انحلال السلطنة وهو أمر كان يرجوه الصقالبة ويسعون له بما أوتوا من قوة . وسمت كاترينة احد أحفادها قسطنطين وكتبت على أحد أبواب موسقو الطريق الى القسطنطينية وكل هذا معناه في رأيها ان الاستيلاء على الاستانة امر سهل المنال

وتظهر علامات تطور المسألة الشرقية ـ تلك المسألة الدولية الهامة ـ في ثنايا معاهدات ياش وبكرش واقرعان وادرنه . وكان التتر قد منحوا الاستقلال بمقتضى معاهدة قينارجة وتعهدت روسيا ان لا تتدخل في شؤونهم على انالامبراطورة كانت عازمة على سلب أهل القرم استقلالهم قبل أن يجف مداد المعاهدة التي بها قررت على نفسها احترام ذلك . ففي سنة ١٧٨٣ أعلنت ضم القرم الى روسيا وهاجت الاستانة وماجت من جراء ذلك . وكانت انكلترا اذ ذاك لا تحب أغضاب روسيا لكراهتها فرنسا فكان السلطان من غير عضد واضطرته غير الايام أن يرضى مكرهاً بما فعلته روسيا

وفي سـنة ١٧٨٧ زارت كاترينة أملاكها الجديدة برفقة الامبراطور النمسوي يوسف وكتبت كتابة فخمة على أحد ابواب خرسون مؤداها : هذا الباب يفضي الى مدينة بيزنطية . فلما سمع الاترك بذلك ثارت ثائرتهم ولم يستطيعوا كتمان غيظهم وأعلنوا الحرب على روسيا وكانوا هذه الدفعة أيضاً على غير اهبة واستعداد . وفي ديسمبر سنة ١٧٨٨ حدث حصار أوخاكوف وكانت عظيمة التحصين ويظن ان باستطاعة حاميتها رد الروسيين عن الافلاق والبغدان . غير ان الجنود الروسـية التهبت غيظاً وكراهة للاتراك وشوقاً لقتالهم بعد ان أراها قوادها ما فعل الاعداء بسكان قرية مجاورة هنالك شددوا الحصار واستماتوا في القتال حتى ارتقوا الاسوار وأذاقوا العثمانيين البوار

وألحقوا بهم الدمار وألبسوهم لباس الذل والعار . ثم أنهم بعد دخول المدينـة انطلقوا كالوحوش الضارية والسباع الجائعة والسيول المتدفقة فقتلوا ونهبوا وسرقوا ومثلوا ورووا الثرى بدماء سكان المدينة المسـاكين الذين جرى عليهم مدة ثلاثة أيام كاملة ما تقشعر منه الابدان وما يفزع منه الانسان ويستغيث من هوله الثقلان ولا عجب فلم يبق من سكان المدينة البالغ عددهم ٤٠٠٠٠ غير ٣٠٠ من النساء والاطفال

وفي السنة التالية أمر القائد الروسي سواروف الذي تنسب اليه فظائع اوخاكوف بالتقدم لحصار قلعة اسماعيل القائمة على دال الطونة كانها جبهة الاسـد أو عقاب الجو وكانت لا تبعد عن ساحل البحر الاسود باكثر من اربعين ميلاً . واستولى الروسيون عليها بمهاجمتها ليلاً ولـكنهم بعد ان دخلوها علموا ان مهمتهم لم تنته بعد وانهم لا بد يصطلون نار حرب لا تذكر بجانبها الحرب التي ذاقوها وهم خارج الاسوار . وذلك ان شوارع المدينة كانت كالجمر المتقد فكان كل منزل معقلاً وكل طريق ميدان قتال فظيع وجرت المذابح الهائلة طول اليوم وجرى تيار الدماء تحت أقدام المتذابحين وقد أنستهم الوحشية انهم اخوان في الانسانية . وكان سكان المدينة المساكين يذبحون ذبح الاغنام وليس للروسيين أكباد تحس وقلوب تشفق حتى قتل في الثلاثة الايام الالوف

وختم صلح ياش المؤرخ في يناير سنة ١٧٩٢ فصول هذه المأساة ومن الغريب ان الروسيين استهلوه « باسم الله » كما هي العادة وتعهدوا بمراعاة حقوق الصداقة والجوار ! ؟ وان يعودوا الى مصافاة العثمانيين بعد ان كدرتها خلافات تافهة !! ثم ختموا اكاذيبهم بأنهم يحترمون هذا العهد الى الابد

وكان الروسيون قد نجحوا في حمل الترك على الاعتراف لهم بحق الوقوف موقف المدافع عن نصارى الدولة العثمانية . كان ذلك في شروط معاهدة قينارجة (١٧٧٤) . فلما وضعت شروط معاهدة ياش (١٧٩١) حرصت كاترينة على وضع شرط يتعلق بتأييد الحق المذكور . وكانت لا تقل عن بطرس في انتهاز كل فرصة تؤول الى اشهارها بالوقوف موقف المدافع عن مسيحيي السلطنة العثمانية لعلمها ان من هذا يأتي الخلاف [illegible] الاعتداء لشهر الحرب على الاتراك العثمانيين . على ان كاترينة الثانية كانت دائماً [illegible] شرط الصلح حتى تتأهب للحرب والاعتداء ولا تؤكد الصداقة الا وهي توطن [illegible] لتكدير [illegible] بالليل والنهار . فلم يكد يجف مداد معاهدة ياش حتى كانت الاستعدادات [illegible] وقدم نقيام باشـأم عمل وتهيء اكبر خطر

يهدد العثمانيين . نعم كانت روسيا تعد العدة لقطع دابر الاتراك واستئصال شأفتهم دفعة واحدة وفوجىء الناس بخبر موت أصل بلاء وعلة شقاء السلطنة التركية كاترينة الثانية وكان ذلك في نوفمبر سنة ١٧٩٦

على ان موت كاترينة لم يوقف الاعتداء على العثمانيين الا هنيهة فالروسيون انتهزوا أول فرصة سانحة وزحفوا على الافلاق والبغدان سنة ١٨٠٦ من غير اعلان حرب. فلما سمع الأتراك بذلك عرتهم دهشة وحيرة وثارت ثائرة غضبهم وحنقهم من تعديات هذه العدوة اللدودة وأخذوا يحشـدون الجيوش لمقاومة الروس فلم يفلحوا وما عملوا عملاً يذكر . وكان في غضون ذلك قد تقابل قيصر الروس ونابليون بونابرت امبراطور الفرنسيين في تلست (١٨٠٧) واتفق الاثنان على ايجاد الالفة والوداد والصفاء بين بلاديهما وان يكونا خليلين متحابين وصـديقين وفيين وان يبقى الوئام ويدوم الاخلاص بين دولتيهما الى ابد الآبدين ودهر الداهرين [1] ثم أجاز نابليون للاسكندر أن يقاسمه السلطنة العثمانية ولاجل أن يضللا بالرأي العام في أوربا نشرا في الناس صورة اتفاقهما وفيه اعلنا مسارعة روسيا الى اخلاء الافلاق والبغدان وتظاهر القيصر باصدار الاوامر في هذا المعنى الى جيوشه . وكانت النمسا في غضون ذلك منهمكة بحرب بونابرت وجرت موقعـة وجرام وصلح شونبرون وفيه قضى على آمالها فاصبحت الروسيا لا تخشى معارضتها وخلا الجو لها لتكيد لتركيا وتعمل على سحقها

على ان عاملاً جديداً ظهر في أفق السياسة بالاستانة وتغير به مجرى الحوادث . وذلك ان انكلترا كانت في الزمن السابق مقيدة بمعاهدة روسية فكانت لذلك على غير وفاق مع السلطنة . فلما تعانق القيصر ونابليون في تلست أصبحت انكلترا في حل من كسر قيود محالفتها مع روسيـا ولذلك سعى السير روبرت أدير في امضاء صلح الدردنيل سنة ١٨٠٩ وغادر السفارة الانكليزية في الاستانة وخلفه فيها سفيراً للانكليز لدى العثمانيين شاب لا يتجاوز ٢٣ سنة يدعى ستراتفورد كانيج وكان على صغر سنه وقلة تجاربه وعدم موالاة وزارة خارجية انكلترا له بالارشادات والاوامر لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً في احباط دسائس الفرنسيين وقد نجح في ذلك . وكان قصد نابليون الحقيقي اضعاف روسيا باسلاس قيادها لمدها على تركيا حتى اذا استقر ...

(١) ذلك لم يكن اكثر من خمسة أعوام !

في الحروب التركية ضعفت فكانت لقمة سائغة له يزدردها . وكان يمني النمسا بأخذ حصة من املاك تركيا وهو مع ذلك يهدد العثمانيين ويتوعدهم توعد القادر الذي أرهب أوربا وملأها رعباً وسطوة اذا هم سمعوا نصائح انكلتره وأتمروا باوامرها مع أنها الدولة التي قامت أدلة التاريخ على أنها غالباً خير من يقف موقف المدافع عن حقوق الشعوب المظلومة والدول المهضومة وأنها احيانا نصير البؤساء وعون الضعفاء . وكان يتظاهر أيضاً بحب العثمانيين ويغريهم بحسن الدفاع عن سلطنتهم فكان مخادعاً محتالا يلبس أمام كل دولة لبوساً من الرياء جديداً وظهر في باديء الامر كأن النجاح حليف مكره وقرين دهائه وان العثمانيين لا يمكن ان يتخلوا عن نصحه وارشاده

على أن عبقرية كاننج ظهرت باجلى مظاهرها وانتصر حذقه السياسي على دهاء نابليون في ميدان السياسة بالاستانة . وكان الذكاء وحسن الحيلة وسداد الرأي هو كل ما يملك لان دولته لم يكن باستطاعتها اذ ذاك أن تمد له يد المساعدة بالجيوش البرية والسفائن الحربية . على ان انتصاره ذلك الانتصار الباهر في معارك السياسة بدوائر الحكومة التركية ونجاحه في تسيير دفة الامور على ما يريد ويرغب انما كان سببه حسن بيانه وقوة حجته ودقة تصويره لاطماع نابليون في بلاد الدولة وبديع ذكره لاتفاقات الفرنسيين المتعلقة بكيفية انتهاب أملاك المسلمين مع تجسيمه مخاوف الوزراء العثمانيين وتكراره اسداء النصح واتخاذ الاهبة لرد كيد نابليون في نحره . بكل هذه الوسائل استطاع السفير الانكليزي الشاب أن يوجه تيار السياسة التركية الى الجهة التي تنفع دولته وتخدم حكومته حتى حمل الباب العالي على امضاء صلح مع الروسيا ولو بتضحية بعض الاقاليم . وهكذا أمضيت معاهدة بوخارست (بكرش) في مايو سنة ١٨١٢ وتعدلت بموجبها الحدود بين روسيا وتركيا فصارت تنطبق على نهر البروث

هذا ولا شك أن نصحه للدولة بامضاء شروط هذا الصلح كان في مصلحتها لانها أنهت حرباً كانت تعظم ويلاتها عليها وتتكاثر خسائرها منها كلما امتد الزمان. وكذلك كان هذا الصلح مفيداً للسياسة الدولية وسلامة وحرية أوربا لان أضعاف روسيا كان يؤدي الى تعاظم الخطر من نابليون فيبيت من غير منازع قوي وليس له من يوقف أطماعه في أوربا وغيرها عند حد اذا كانت روسيا خائرة القوى واهية البأس . هذا هو سر اهتمام السفير بحمل تركيا على امضاء شروط الصلح مع الروسيين حتى يتفرغوا لقتال الفرنسيين الزاحفين على بلادهم في الوقت المناسب . هذا ومن علم أن

تحطيم الجيش الفرنسي المرتد عن موسقو أنما كان بانقضاض الروسيين بقيادة سيكالوف (وكانوا في حرب تركيا الآتي الذكر) عليه علم أهمية سعي السفير الانكليزي في الاستانة فاليه وحده يرجع فضل زعزعة قوة نابليون الذي سهل على الحكومة الانكليزية بعد ذلك أن تستعد لضربه الضربة القاضية

الفصل الرابع

المسئلة الشرقية في القرن التاسع عشر

١٨١٠ — ١٨٨٠

سياسة اوربا عامة وروسيا خاصة نحو الدوله ـ المراد بالمسئلة الشرقية في القرن التاسع عشر ـ حال تركيا امس واليوم ـ السلطان محمود الثاني ـ خروج محمد علي باشا المصري وعلي باشا الالباني على السلطان ـ ابادة الانكشارية ـ استقلال اليونان ـ مصر وتركيا ومعاهدة سنة ١٨٤١ ـ السلطان عبد المجيد ـ حرب القرم ـ الاستيلاء على سباستبول ـ معاهدة باريس ـ الدقائق اليابانية ـ السلطانان عبد العزيز ومراد الخامس ـ السلطان عبد الحميد الثاني ـ حرب روسيا ـ حصار بلفنا ـ معاهدة برلين ـ انكماش السلطنة

كانت تركيا في العصور السالفة تحارب لزيادة الفتوحات أو لصد هجمات الهاجمين عليها ودفع الطامعين فيها . أما في القرن التاسع عشر فشرعت أمم اخرى تحارب باسم تركيا لا دفاعاً عن مصالح تركيا بل غيرة على مصالحهن وقد اصبحت مدينة البوسفور موضوعاً لنضال الدول الاوروبية. فاحداهن وهي الروسيا متحفزة للاستيلاء عليها وبقية الدول مع خوف كل منها من اعلان رغبتها في ضمها اليها قد عقدن الخناصر على ان لا يقترب منها طامع فيها. وبحلول القرن التاسع عشر زالت كل المخاوف من قوة تركيا العسكرية وكل ما بقي في صدور الدول من القلق لم يكن سببه قوة تركيا بل ضعفها واحتلالها يخل التوازن اختلالاً عظيماً. وضعف الدولة وقوتها اكبر عامل في المسألة الشرقية . ومن المؤكد ان الترك لم يغلبوا بحق وشرف في اية حرب من حروبهم في القرن التاسع عشر . ففي حربهم مع الروسيا (١٨٠٩ ـ ١٨١٢) . لم ينكسروا الا كسراً ضعيفاً . وفي حروب اليونان (١٨٢٢) ـ ١٨٢٨) كانت افكارهم مشتتة وأخذتهم [illegible] اليونان [illegible] على غرة ومع ذلك لم يسلموا لليونان بمطالبهم الا بضغط دول [illegible] العظمى. وفي حرب الروسيا (١٨٢٨ ـ ١٨٢٩) نالت عدوتها النصر [illegible] بسلاح الغدر والخيانة ولم يسلم السلطان محمود لها بمطالب ويعترف [illegible] والتلافيق التي وصلت اليه. وفي حرب القرم طرد الترك [illegible] اضطروهم الى تخطي الطونة منهزمين قبل وصول الحلفاء [illegible] بعد ذلك [illegible] الروسيون في معركة يعتد بها. وفي حروب الروسيا

والدولة التي ختمت فصولها بمعاهدة برلين اكد ثقات المؤرخين ممن لا يخافون في الحق لومة لائم ان الروس نالوا من النصر بالمال اكثر مما نالوا منه بحد السيف وان الترك لولا خيانة ضباطهم وحبهم للرشوة لافهموا الروسيين كل مرة انهم أمام خصم عنيد وبطل صنديد

على أنه اصبح من البديهي في القرن التاسع عشر اعتبار تركيا دولة لا حول لها ولا قوة على الدفاع وغالب الحروب والمخابرات التي تتعلق بالبوسفور حصلت مع افتراض ان تركيا مع ضعفها لا بد من وجودها حيث هي وكان يعتقد غلاة المتعصبين من الفرنجة أن الامة التركية ليست قابلة للرقي رغم التطورات التي حصلت في نظرياتها الاجتماعية والفكرية والادارية في السبعين سنة الاخيرة . وليس أدل على هذا التطور من الفرق بين حال القسطنطينية اليوم وحالها لما كان السفير الروسي يلقى في غياهب سجون القلعة ذات السبعة الابراج ـ وقت ان كان الوزير التركي يأنف أن يقوم تحية وتعظيما لممثل دولة أجنبية مهما كان قدرها وأيام كان السلطان يرى الاجنبي شيئاً حقيراً . على أن هذا التغير تناول أقلية فاما السواد الاعظم من الناس فقد كان في القرن التاسع عشر على ما كان عليه من الجمود والجهل وكانت لا تزال الادارة والحكومة مرتشية لان تركيا لم تتمتع بفترة طويلة من الراحة والطمأنينة وعدم انشغال البال من جهة حدودها وأملاكها ولم يتفرغ بنوها بما لديهم من حذق وكياسة وهمة وعزم الا الى القاء بذور الشقاق بين دول أوربا الطامعة فيها ليأمنوا شرها ولم يوفقوا لاستثمار خيراتها وكنوزها وتنقيح وترتيب سلطاتها التنفيذية . وعسى هذه الفترة ان لا تكون من أحلام المنام التي لا سبيل الى تحقيقها وليس من الصواب الاعتقاد بان سلامة تركيا ونجاتها معلقة باصلاحاتها الداخلية فقط دون غيرها . وقد سارت الدول العظمى على قاعدة ضرورة وجود حائل يحول بين روسيا والبوسفور وان تركيا لذلك ينبغي أن تكون حيث هي وأن الرجل المريض اي تركيا كما صورها عقل نقولا المختبل يلزم ان تنفخ فيه روح الحياة والقوة

ولقد كان القرن التاسع عشر مجمع عدة حوادث آلت الى قص أطراف تركيا وهددت السلطان بالجلاء عن أوربا

لما رقى محمود الثاني عرس السلطنة سنة ١٨٠٨ كان طفلا أو العوبة في يد جنود

الانكشارية الذين فتكوا بغير واحد ممن تقدمه من السلاطين

وقد افتتح حكمه بحرب مع الروسيا على ان مطامع قيصرها وعداوته لم تكن بذات خطر بالنسبة لما كان ينويه نابليون للدولة من التقسيم ويعمل له في الخفاء. فمعاهدة بوخارست (سنة ١٨١٢) وضعت حداً للاخطار الناجمة عن مطامع الروسيا وساعدت على فشل مشروع نابليون. على أن محموداً ابتلي باعداء من قومه وسكان داره بعد ان تخلص من نيات مكر الروسيا وفرنسا وذلك ان بشوات عظاماً استبدوا بالامر والسلطة في جهات نائية من الدولة وصاروا يحكمونها كملوك مستقلين هازئين بسيادة السلطان واستبد أيضاً جماعة من الاعيان المحليين ببعض بلاد تركيا



علي باشا تبه دلن

وقراها وسخروا من عساكر السلطان وجنوده. واشهر الرجال الذين هددوا الدولة بالانقسام رجلان أحدهما محمد علي الذي جعل مصر مستقلة بزعامته في العقد الثاني من القرن التاسع عشر وقد أسس فيها سلطة على أوطد اساس بحيث أمكنه ان يورثها لأولاده واعقابه من بعده ومنهم صاحب السلطة الشرعية على مصر الآن والثاني علي باشا تبه دلن صاحب يانينا الذي استبد بالسلطة في بلاد البانيا وانشأ لنفسه برماح البربرية والتوحش عزاً وجاهاً ساذجاً وما زال صاحب الامر في تلك البلاد الوعرة الى أن ظهرت له جنود السلطان وقتلته سنة ١٨٢٢ ولاجل التغلب على هذه الخصوم العنيدة

ومجاوزة كل هذه الاخطار الشديدة كان لابد من وجود جيش قوي منتظم وتعضيد من جانب الاهالي والرعية ولكن الرعية كانت تفضل اعيانها وذواتها المحليين على ضباط العثمانيين القساة وتؤثر حكمهم على حكم الترك الفاسد واصبح الجيش من الانكشارية غير مخلص في اوقات الحرب مع انه مشاكس متمرد عاص في الثكنات ايام السلم

فالسلطان محمود الذي كانت له ارادة حديدية وحذق سياسي عظيم وصبر لا يقهر شرع يعمل على مداواة هذه الادواء والعلل ولم تنضج مشروعاته الا بعد عشرين سنة . ففي سنة ١٨٢٦ بطش بالانكشارية وبيان ذلك ان سكان بيره وجهوا نظرهم جهة القرن الذهبي في صبح يوم من ايام شهر يونيو فرأوا عمودين من الدخان صاعدين

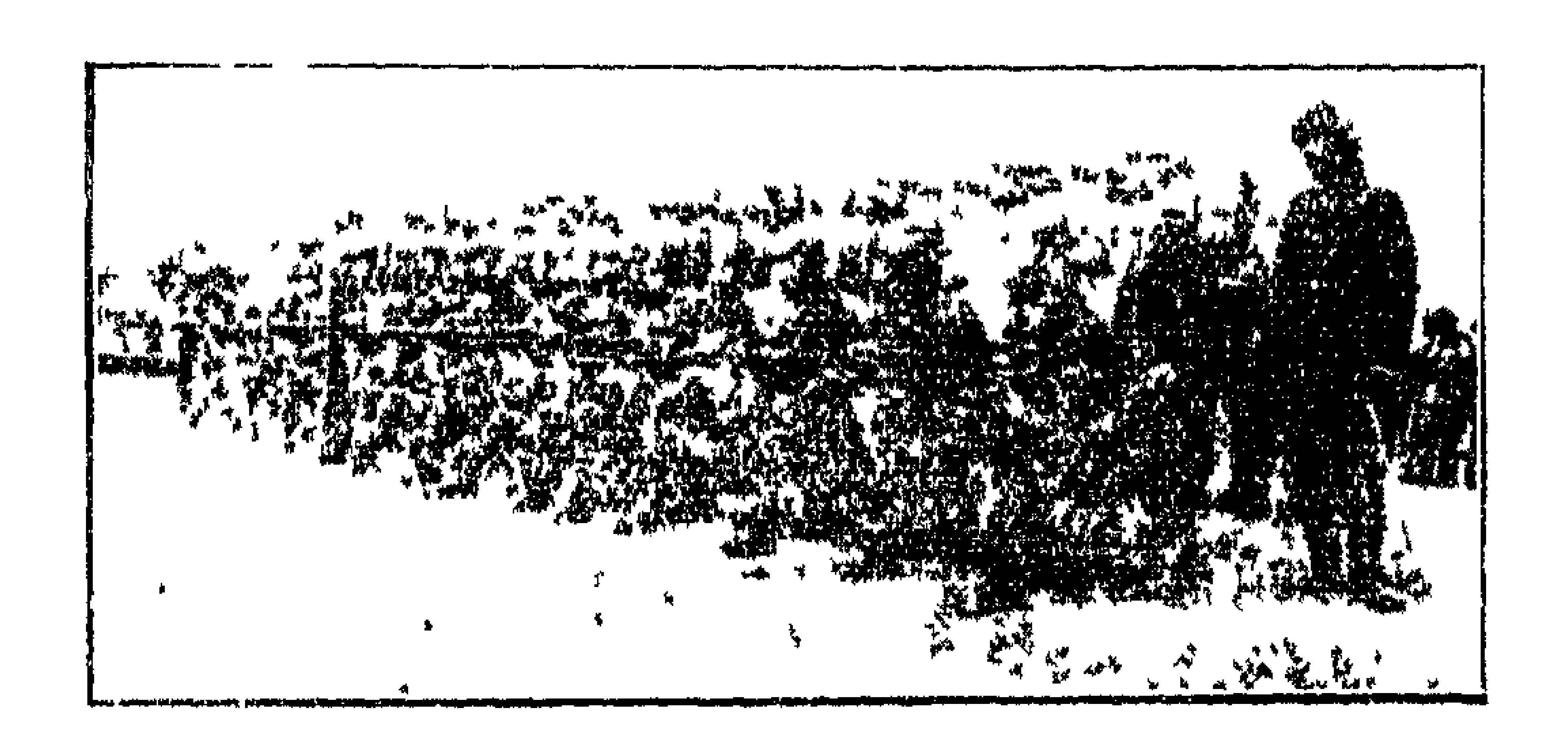


جند الانكشارية

الى السماء من جهة ماآذن حي استامبول وكان الانكشارية قد تمردوا وأحدثوا فتنة وشغباً ولكن السلطان كان على تمام الاهبة لهم وكان الدخان دليلاً على نسف ثكناتهم وان الجنود التي لم يعد الله في اجل نظامها الا لتلطخ سمعتها الحسنة القديمة بصفات الجبن والخسة والدناءة وحب التمرد قد أبادها السلطان محمود عن آخرها ومن سلم منهم من الحريق لم يسلم من البنادق المسددة والسيوف المشهرة وسفن النفي والتعذيب . وأصبح السلطان بعد تقلص ظل الانكشارية حراً في انشاء جيش جديد منظم حسب القواعد الفنية الاوربية الحديثة المتبعة في جيوش امم الغرب حيث يستطيع

المحافظة على كرامة وشرف الاسم العثماني . وكان السلطان يطالع كتباً فرنسية في علم الحرب ويمرن عساكره بنفسه على الحركات ويلبس ملابس الجنود ويركب خيول الجنود على رحائل عسكرية وكان يشتغل ليل نهار باجتهاد دائم متواصل. ولكن الاقدار مع ذلك كانت تعمل على معاكسته فانه بعد تشتيت شمل جنود جيشه القديم وقبل ان يتم جمع وتنظيم جيش جديد فوجيء بما لم يكن في الحسبان وداهمته الاخطار من كل مكان

وأول الاخطار التي أقلقت بال السلطان محمود كانت من جهة اليونان ويكفي ان يكون تاريخ هلاس القديم المجيد الحافل بالافعال الشريفة والاقوال الحكيمة مرغباً للناس في التداخل في شؤون سكانها ومساعدتهم على طلب الاستقلال . على ان الواقع ان نيران الفتنة لم تشتعل طلباً للحرية وسعياً لها وانما كان الدافع اليها تحريضات



مثال من الجند التركي بالزي الجديد

ودسائس الدولة الروسية مع حب عامة اليونان للمشاغبة حباً موروثاً . ومهما كان السبب الحقيقي لثورة اليونان ضد السلطان فان محبي الانسانية والعلوم والآداب اليونانية القديمة من الغيورين في انكلترة وفرنسا توهموا أن الفتنة اليونانية التي كانت أثراً من آثار الثورة الفرنسية الكبرى السابقة لها بنحو قرن وربع من الزمان ما هي الا صدى للحرية اليونانية القديمة التي ترددت من قديم الزمان في ارجاء الترموبيله ومراتون فلا عجب فان الاناشيد التي كان يرددها أفراد العصابات اليونانية في القرن التاسع عشر كانت بنفس لغة الشاعرين الشهيرين القديمين ايسكيلس وسوفوكليس ولذلك ساد احساس طبيعي حقيقي في ممالك غرب أوربا بوجوب مساعدة اليونان في استقلالهم . فمن الشعراء الذين باعوا أنفسهم ببيع السماح في سبيل

الحرية اليونانية بيرون الشاعر الانكليزي المشهور وكان مدفوعاً بعامل حب اليونانية والاعجاب بآثارها الباهرة وكذلك انضم الى صفوف اليونان من الجنود الذين يحبون المخاطرة ويميلون الى مساعدة الضعيف على القوي ميلاً فطرياً البطل الانكليزي تشارتس وكذلك انضم الى اليونان في حرب استقلالهم جماهير غفيرة من الابطال واهل المروءة والنخوة من سائر الطبقات والملل والنحل مدفوعين بعوامل مختلفة واهتم بالمسئلة اليونانية كل فكر رشيد وقلب جسور . وكانت فرنسا يسرها ويهمها أن يكون على عرش أثينا أمير من سلالة ملوكها وكانت سياسة انكلتره في شخص وزير خارجيتها جورج كاتنج تقضي بترك الامم المظلومة والاجناس المهضومة الحقوق تدافع عن حريتها واستقلالها وتجهر بالمطالبة بهما . اما مذهب سياسة اوربا نفسها في ذلك العهد تلك السياسة التي كان يتمسك بها تمسكا شديداً البرنس مترنخ فكانت تقضي بجعل الدول الاوربية بصفة حارس غيور يسهر على ابقاء حال اوربا ونظامها على ما قررته معاهدة سنة ١٨١٥ ويمنع كل حركات الحرية والاستقلال ويقمع كل من يدعو اليها

اما المستر كاتنج فكان يكره سياسة التحالف المقدس هذه كراهة شديدة ويعتبر الثورة اليونانية رغبة بسيطة من جهة شعب مسيحي يريد أن يخلع نير الترك وانها ليست تطاولاً جمهورياً على حق ملوكي مقدس . لذلك بذل وزير خارجية انكلتره كل مجهود في ايجاد اتفاق بين الدول المحايدة ونجح في حمل الروسيا ثم فرنسا على الاشتراك مع انجلترا في جبر السلطان على امضاء شروط معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ على أن السلطان لم يسلم بمطالب الدول ولم ير وجهاً - وجيوشه (على العموم) منصورة - لحرمان نفسه حرماناً اختيارياً من املاك اليونانية . واشتبك بالصدفة الاسطول التركي واسطول الحلفاء في موقعة بحرية في مرفأ نفارينو (اكتوبر سنة ١٨٢٧) فتحطم الاول وانقلبت المظاهرة السلمية من قبل دول اوربا العظمى الى حصر بحري ثم نزلت قوة فرنسية الى البر في مورة وفي الحال تمكنت من اجلاء الجنود المصرية المساعدة واخيراً آل الامر الى حرب بين الروسيا والدولة (١٨٢٨ — ١٨٢٩) وهذا كان اقصى اماني روسيا من زمان بعيد

ولقد كانت الروسيا قد تحرشت بالدولة قبل ذلك فقدمت هذه لها ضحايا عظيمة باجابتها الى معاهدة اقرمان سنة ١٨٢٦ لان حشر السلطان اذ ذاك لم يكن على

تمام الاهبة والاستعداد لحرب عظيمة مع دولة قوية وكان تحالف الدول الثلاث العظمى سنة ١٨٢٧ يمنع انفراد احداهن بالعمل ولكن بموت المستر كاننج وحلول اللورد ابردين محله في وزارة الخارجية انفسح المجال أمام روسيا للعمل بنفسها منفردة حرة. وكانت النتيجة زحف ديبتش بجسارة على جبال البلقان وكسر جيوش السلطان محمود واضطراره الى امضاء معاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩ بحضور جيش روسي لم يكن يزيد عدده عن ١٥٠٠٠ ولقد نجح السيف المشهر المجرد في وجه تركيا في حمله على التنازل عما عجزت محادلات السفراء ونكبة نفارينو المريعة عن الحصول عليه. وبذلك اعترف السلطان باستقلال اليونان ووسعت حدودها سنة ١٨٣٢ الى القدر



السلطان محمود الثاني

الذي كانت عليه لغاية عهد عبد الحميد الثاني. وروض الامير ليوبولد تاج اليونان وقد ادرك الناس من افعال اوتو البافاري ملك اليونانيين ان الحكومة الدستورية برآسة المسيحيين الاجانب لا تقل في فسادها واختلالها وعملها على اغاظة المحكومين عن حكم الباشا التركي المستبد الظالم

ولقد كان انفصال اليونان ضربة شديدة على آمال السلطان محمود على انه لو كان ترك بعد ذلك مقدار ١٠ سنوات حراً مرتاحاً مطمئناً لكان بامكانه تنفيذ سياسته الاصلاحية اي كان مقرراً لها. أما وقد كان سيء الطالع فقد سلطت الاقدار الدول على تحطيم اسطوله كما انها بالروسيا التي حطت من قدره واضعفت جيشه وجعلته

فريسة لتابعه القوي محمد علي والي مصر الذي أمعن بجنوده في قلب بلاد الشام بل وتهدد البوسفور فتداخلت روسيا في الوقت المناسب بين التابع والمتبوع (وكوفئت في الحال على تداخلها بمعاهدة خونقار اسكله سي ١٨٣٣) وبذلك نجت القسطنطينية من مخالب محمد علي

ازعجت هذه المعاهدة الدول الغربية ونبهتها من غفلتها وسباتها لانها جعلت لروسيا حق مطلق اجتياز الدردنيل ومضى وقت ليس بالقصير حتى طلبت تلك الدول الاعتراف بحقها في معارضة روسيا واعتراض مطامعها . وكانت فرنسا في صف محمد علي



محمد علي باشا خديوي مصر

اما انجلترا وكانت تحت رياسة الاحرار في وزارة غراي وملبورن وقد شغلتها المسائل الداخلية عن التفرع لشؤون السياسة الخارجية وقد اعترف بالمرستون بأنه أبطأ أكثر من اللازم قبل أن يقدم للسلطان التعضيد المطلوب . وفي آخر الامر سار الاسطول الانكليزي قاصداً مياه الشرق الادنى واستولى على عكا واقتصرت املاك محمد علي بمعاهدة سنة ١٨٤١ على مصر واحداثها من سيادة السلطان الذي ضمنت سلامة واستقلال سلطنه دول اوربا العظمى . وتاريخ معاهدة سنة ١٨٤١ مهم وجوهري في سجل حوادث الدولة العثمانية الاخيرة وذلك لان الدولة العلية وضعت لاول مرة تحت وصاية ورعاية الدول رسمياً

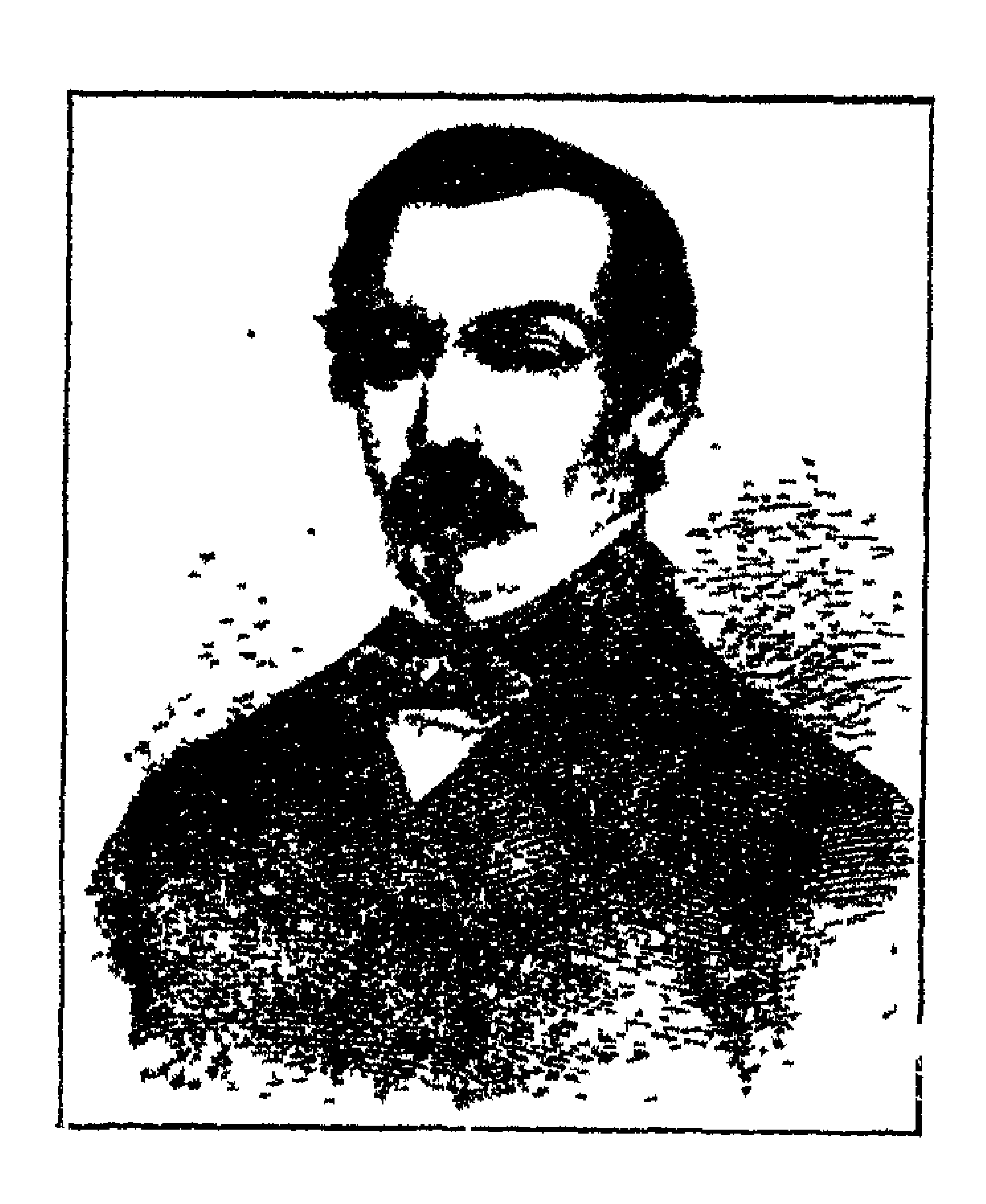
وفي غضون هذه الحوادث توفى السلطان محمود سنة ١٨٣٩ في السنة التي كادت املاكه تقع فيها غنيمة باردة في يد تابعه الخطير. ولو ان الله مد في اجله ١٤ سنة اخرى لكانت الدولة العثمانية انتفعت بالاصلاحات الداخلية اعظم انتفاع ولا بد ان ارادته القوية كانت تناولت كل فروع الادارة والحكم العثماني بالرقي والتحسين . أما وقد كان ابنه ووريثه السلطان عبد المجيد على ما كان عليه من ضعف العزيمة والهوادة ـ بصرف النظر عن صفاته الاخرى الحميدة والممدوحة ـ فما كان يرجى اجراء شيء من الاصلاح على يديه بالذات



السلطان عبد المجيد

وعكرت صفو الاصلاحات الداخلية التدريجية الهادئة التي أحدثها رجال عبد المجيد شوائب حادثتين من الحوادث الخارجية فالحادثة الاولى مرت ولم يقف بسببها سير الاصلاح الا مؤقتاً . وذلك أنه في سنة ١٨٤٩ حدث ان جماعة مختلفة الاجناس من بولونيا والمجر التجأوا الى بلاد السلطنة السنية ليتمتعوا فيها بالسكون والهناء بعد أن نالهم الشيء الكثير من الظلم والاضطهاد والعذاب على أيدي النمسا والروسيا اللتين قمعتا الثورات الناشبة فيهما خصوصاً وفي أوروبا عموماً لذلك العهد باقصى ما يتصور من الشدة الدموية . وكان بين هؤلاء المحتمين بحمى الدولة زعماء مشهورون مثل كوشوت وبم ودمبسكي فلم يسع كلا من امبراطور النمسا والروسيا الا طلب تسليم

أولئك الزعماء ومعنى تسليمهم التنكيل بهم في الحال ولكن الترك رأوا أن تسليمهم ينافي مكارم الاخلاق الشرقيـة وواجبات الكرم والضيافة وعضدهم السير ستراتفورد كاننج في مقاومتهم الشريفة لطلب الامبراطورين فلم يسع النمسا والروسيا الا قطع العلائق بتركيا . وتفاقمت الامور ولكن ظهور الاسطولين الانكليزي والفرنسي في مدخل الدردنيل اظهر للعالم ان تركيا لا تقاتل وحدها هذه الدفعة وبذلك زال الخطر وكتبت السلامة المحتمين بظل الدولة ولم يكبر الناس همة السفير الاعظم ومروءة السلطان العثماني في موقف من المواقف اكبارهم لهمتهما ومروءتهما في



الامبراطور نابليون الثالث

هذا الموقف الذي وقفاه يدافعان عن مبدأ من اشرف المبادىء الاخلاقية . والحادثة الثانية التي عكرت صفو السير في سبيل الاصلاحات الداخلية كانت أشد من سابقتها هولاً واكبر تأثيراً وكان سببها من الحوادث التافهة . ذلك انه كان في بيت المقدس رهبان من جنسيات مختلفة تابعون لكنائس او طوائف نصرانية مختلفة ما بين لاتينية ويونانية وأرمنية . وكان الرهبان من اللاتين والرهبان التابعون للكنيسة اليونانيـة لا ينقطعون عن النزاع والخلاف على الاماكن المقدسة مشهد حياة المسيح وكانت فرنسا تحمي الرهبان من اللاتين وروسيا تحمي اتباع الكنيسة اليونانيـة . واذا صح

ما قيل من أن الامبراطور نابليون الثالث وجد من الضروري الهاء الفرنسيين بعمل حربي أو أن مشاجرات الرهبان في ذلك العهد تصادف وصولها الى درجة خطيرة جداً فانه من المؤكد على كل حال ان الفرنسيين تغالوا في مطالبهم سنة ١٨٥٢ الى درجة لا تحتمل وحارت تركيا بين الفريقين المتذمرين الشاكين ولم تعرف كيف توفق بينهما أو من منهما تؤثره بانصافها ومراعاتها . وبمساعدة ستراتفورد كاننج الذي دخل اذ ذاك في مصاف اللوردات وصار « الفيكونت ستراتفورد دي ردكليف » أمكن حسم النزاع في ابريل من سنة ١٨٥٣ ولكن روسيا لم ترض بما ارضى غيرها



نقولا الاول قيصر روسيا

واصرت على طلب امتياز لو أجيبت اليه لحازت الزعامة والحماية على الاثني عشر مليوناً التابعين للكنيسة اليونانية والمذهب الارثوذكسي في بلاد الدولة. على ان هذا لم يكن ليسلم به طبعا ومضت الشهور العديدة ورجال السياسة في أوربا يتنافسون في تقديم اقتراحات الترضي والمسالمة ويقدمون مشروعات يغلقون بها باب المشاكل والحروب ولكن كان من الامور الواضحة من اول نشأة الخلاف ان قيصر روسيا المفتون لا يرضيه ما هو دون الحرب وامتشاق الحسام

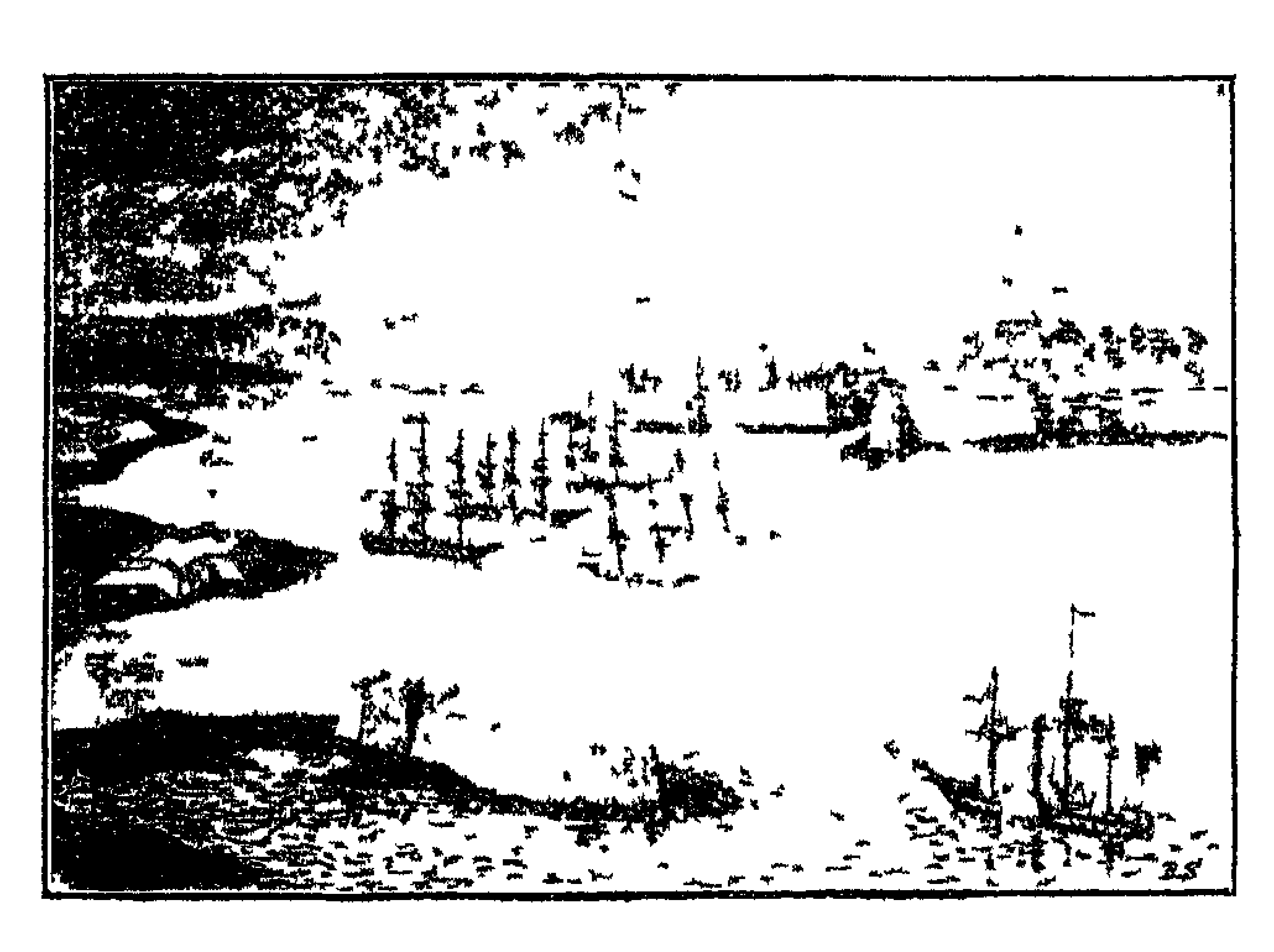
لذلك أسرع الروس فزحفوا على ولاخيا في يونيو من سنة ١٨٥٣ من غير ان يكون لهم عذر مبرر . ولكن الترك مع ذلك رضخوا لارشادات ونصائح اللورد

ستراتفورد وا كتفوا بالاحتجاج واستمرت المخابرات في فينا وغيرها ودخلت أساطيل انكلترا وفرنسا الدردنيل في اكتوبر . والى هنا لم تكن الحرب قد أخذت بعد شكلها الجدي الرسمي ولكن بعد ان انذرت دول غرب اوربا روسيا صراحة وبعد ان اقتحمت مراكبها مرفأ سينوب وأغرقت قسماً من الاسطول التركي واهلكت بحارته المستضعفين على مرأى من قائدي الاسطولين الانكليزي والفرنسي اللذين كانا راسيين في البوسفور زاد الحماس في صدور الانكليز وابتدأت الحرب المعروفة بحرب القرم في ٢٨ مارس سنة ١٨٥٤

وكان سبب شهر فرنسا وانجلترا الحرب على الروسيا الرغبة في ارغام الروسيا على سحب جنودها من ملدافيا وولاخيا . ولم تكد تصل قوى فرنسا وانجلترا المتحدة الى ميدان القتال بقيادة المرشال « سان ارنو » ولورد « رجلان » حتى اضطر الروسيون من جراء مضايقات النمسا وبسالة الترك في الدفاع عن سلسترة بقيادة بطلر ونازميت الى النكوص والارتداد وقد عبروا الدانوب في يونيه فسار الترك في اعقابهم والى هنا وصلت الحرب الى الدرجة الفاصلة

على انه كان في الناس احساس عام ان روسيا لا تتأدب وتلتزم جادة الاعتدال الا بحصار قلعة سباستبول الغضوبة ودكها دكاً . وبناء على ذلك شرع الحلفاء في سبتمبر يوجهون حملة على بلاد القرم لهذا العرض وكان عملهم هذا خرقاً في الرأي واندفاعاً اعمى وراء العواطف فقد كانوا جاهلين بطبيعة الجهة التي ينزل فيها الجنود وجاهلين بطبيعة الاستحكامات وقوة الاعداء ومع ذلك رست سفنهم على مدخل تلك الجزيرة الجرداء فكان من نزل فيها من الجنود قليلاً ولم تتخذ لهم قاعدة حربية كما لم تدبر لهم وسائط التموين وقد وجدوا العدو بانتظارهم في جموع اكبر من جموعهم وفي مواقع حصينة على الاكمات الواقعة خلف نهر « الما » . وقد اخطأ الفرنسيون في القيام بما وكل اليهم من الحركات الحربية فلم يسع الانكليز الا شق طريق لهم صاعدين الاكمة وقد فغرت مدافع العدو عليهم فاها فامطرتهم وابلا من النار ومع ذلك أجلوا الروسيين عنها فولوا أمامهم الادبار (٢٠ سبتمبر) . ولو كان الحلفاء بدرجة من القوة استطاعوا معها الاستمرار في مطاردة عدوهم لكان سقوط سباستبول في أيدي المشددين عليها في اليوم التالي أمراً محققاً ولكن قلة العدد وعدم توفر وسائط العناية بالجرحى وجبن البعض وتحاسد البعض الآخر كل هذه الامور أوجبت على اللورد

« رجلان » التمهل والانتظار . ولما أحس الحلفاء بضرورة اتخاذ مرفأ لهم للتموين والامداد زحفوا زحفاً جناحياً واستولوا على ثغر « بالاكلافا » ثم أخذوا يستعدون لمحاصرة قلعة سباستبول من الجنوب . وقد قابلهم الروسيون بأعمال مختلفة منها انهم هجموا على الجناح الايمن للقوة الانكليزية في الثاني عشر من اكتوبر فردهم الانكليز رداً شديداً وأمعنوا فيهم قتلاً بجنودهم الراكبة المثقلة التي قادها الجنرال « سكارليت » وكذلك قابلتهم وهاجمتهم بنار حامية وبسالة نادرة أيضاً فرق الجنود الخفيفة الانجليزية فتغنى شعراء ووطنيو الانكليز بأفعالها الباهرة زمناً طويلاً وان الذين رأوا بعيني رؤوسهم « وادي الموت » الخطير المهلك هم الذين وحدهم يمكنهم تمثل «فوهة جهنم»



حصون سباستبول

التي سار نحوها « الـ ٦٠٠ جندي النبيل » وهم على أحسن ما يكون الابطال من رباطة الجأش وحسن انتظام الصفوف . وقد خسر الانكليز في ذلك اليوم المشهود خسائر جسيمة تركتهم بعد ذلك عاجزين عن الاشتراك في حركات جديدة. على انه في الخامس من نوفمبر أخذ ٨٠٠٠ من الانكليز على غرة في الضباب وكانوا مؤلفين من جنود الحرس وجنود الآلاي العشرين ومع ذلك أمكنهم الثبات في وجه الروسيين المفاجئين وكانوا لا يقلون عن ٤٠٠٠٠ وكان ذلك على أحد سفوح أكمة « انكرمان » ثم أتى الفرنسيون لنجدة الانكليز وأكرهوا العدو على الفرار من غير نظام

وكانت أعمال حصار سباستبول في غضون ذلك تتقدم بخطوات بطيئة. أما الدفاع

عنها فقد تولى أمره النابغة « تودلبن » وكان دفاعاً ينم عن حذق وذكاء وهمة لا تني وعزيمة لا تفتر فكان هجوم الحلفاء من غير تروٍ معطلاً غير حر بتداخل الحكومة الامبراطورية في باريس في ترتيبات جيشها في القرم . ولذلك أخفقت سائر المجهودات التي بذلت في الاستيلاء على الحصن في ربيع وصيف سنة١٨٥٥ وقاوم العدو مقاومة مدهشة وتوالت المصائب على الحلفاء وعبس لهم وجه الزمان . فمات القائد الفرنسي وتولى بديله ثم استقال هـذا البديل وحالفت الهموم والاشجان اللورد « رجلان » وكرهه الرأي العام وانتقده انتقاداً مراً قاسياً أثر في صحته فمات تحت أثقال العبء الفكري والبدني في يونيو سنة ١٨٥٥ ولذلك لم تسقط حصون « ملاكوف » الا في



مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦

سبتمبر بعد ان شدد عليها الفرنسيون الهجوم ولم يتمكن الحلفاء من احتلال مدينة سباستبول الا بعد سقوط تلك الحصون

وبدلاً من أن ينتهز الحلفاء فرصة انتصارهم على الروس ويزيحوا روسيا الى حدودها القديمة أي الى القوقاز ونهر دنيستر فيبعثون مملكة بولونيا من قبرها ويجعلونها شجى في حلق الروس من جهة الغرب عمدوا الى عقد صلح وأمضيت شروط معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ وقد عدلت بموجبها الحدود تعديلاً طفيفاً . ولكن أعم ما عني المتعاهدون بذكره من الشروط ضمان الدول صاحبة التوقيع سلامة واستقلال السلطنة

العثمانية ومحو الحماية الروسية من ولايات الدانوب والصرب والاعتراف بحياد البحر الاسود بالنسبة لمراكب سائر الدول التجارية مع بقائه مفتوحاً لها جميعاً واقفال البوسفور والدردنيل في وجه سائر المراكب الحربية الاجنبية ما دامت الدولة العثمانية ليست في حالة حرب . وقد تعهدت الدول العظمى أن لا تتداخل في شؤون تركيا الداخلية ووعد السلطان باصلاحات داخلية في الادارة مع تحسين معاملة رعاياه من النصارى . وكانت قد ظهرت نصوص تلك الاصلاحات الموعودة في الخط الهمايوني في فبراير سنة١٨٥٦ على ان أهم جزء من المعاهدة وهو المختص بحياد البحر



السلطان عبد العزيز

الاسود ألغاه القيصر سنة١٨٧٠ لما نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا وبقيت انكلترا من غير حليفتها التي تناوئه معها العداء وتصده عن مشروعاته. وفي سنة ١٨٧١وافقت حكومة المستر غلادستون على نقض العهد والوعد على ذلك النمط القبيح وعاد البحر الاسود مرة أخرى بحيرة روسية وبذلك كان الاستيلاء على سباستبول عبثاً

ومرت معاهدة باريس بالدولة العثمانية وهي سليمة لم تمس بسوء ومع أنها لم تفلح في رد شيء من املاكها المفقودة الا انها من جهة أخرى لم تسلبها أملاكاً جديدة . على ان الوقت الذى أصبح فيه تمس أطراف الدولة ضربة لازب لم يكن بعيداً

ولقد كان اللورد سترانفورد يعلم بثاقب فكره من زمان بعيد أن لا شيء يضمن سلامة الدولة غير الاصلاحات الحقيقية الشاملة . فلما غادر الباب العالي سنة ١٨٥٨ لم يخلفه في مركزه من كان على درجة من قوة العزيمة وحصافة الرأي يستطيع معها أن يحدث وينفذ التغييرات اللازمة لبقائها واستقلت ولايات الدولة المتطرفة بالتدريج واحدة بعد الاخرى. وملدافيا وولاخيا اللتان اتحدتا سنة ١٨٥٨ استقلتا بعد ذلك استقلالاً فعلياً (وكونتا رومانيا) وباستيلاء أمير من آل هوهنزلرن على عرش الولايتين المتحدتين استيلاء وراثياً سنة ١٨٨٦ صار لرومانيا محل بين الدول الاوربية . وقامت قلاقل في



السلطان عبد الحميد الثاني

لبنان سنة ١٨٦٠ فأرسلت الحكومة الفرنسية اليه جيشاً لقمع الفتن واعادة النظام وفي التوفيق بين الحقوق المضاربة وجدت فرصة للورد دوفرين أظهر فيها تلك المواهب السياسية السامية التي عرف بها بين رجال السياسة. وتوفي السلطان عبدالمجيد سنة ١٨٦١ وبموته زالت آثار الامل باصلاح وعلاج تركيا

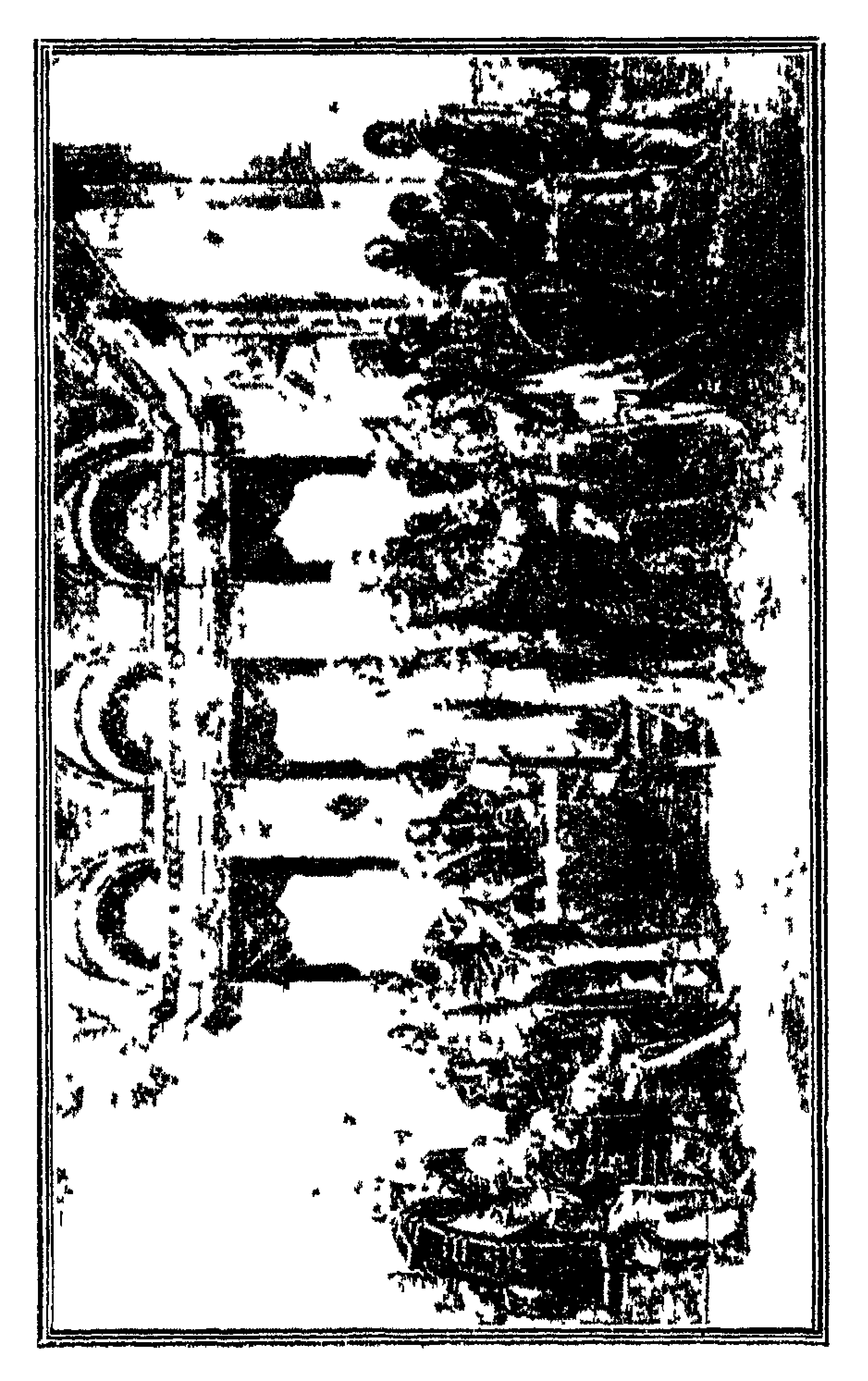
وكان خليفته أخوه السلطان عبدالعزيز جاهلاً مستبداً جرّ بتبذيره واسرافه الدولة الى شفير الخراب سنة ١٨٧٥ وبذلك حرمها من ذلك العطف الذي قلما يناله المسرفون اذا أصبحوا صفر الايدي ولم يشتهر بين الناس بشيء الا بحبه للسفر والتجول ولم يعرف سلطان عثماني قبله ترك بلاده في غير حرب وهام على وجهه سائحاً مسافراً

في بلاد نائية ومع ذلك فان حلفاءه لم يقابلوه في سياحاته هذه بكبير اهتمام

وفي سنة ١٨٧٦ خلع ثم وجد ميتاً ولم يعرف سبب موته ولكن خاتمة حياته أثرت في قوى اخيه العقلية ولذلك عزل مراد الخامس ابن عبد المجيد بعد ثلاثة اشهر من تبوئه العرش فخلفه اخوه عبد الحميد الثاني

وكان عبد الحميد رجلاً سيء الطالع اشتهر بالذكاء والدهاء قضت الاقدار أن يشهد على الرغم منه استيلاء الدول على املاكه. وكانت قبل أن يتبوأ العرش تشتعل نيران ثورة بين مسيحيي الشمال فقد تمردت الهرسك سنة ١٨٧٤ وابتدأت على أثرها تلك المذابح والتعذيبات التي تشوب الاحكام التركية في العادة. ولما عضدت روسيا بلغاريا شرعت هذه في رفع نير السيادة التركية سنة ١٨٧٦ فقابلها رجال الادارة والشرطة التركية بمذابح وفظائع قمعاً للفتنة وتسكيناً للثورة وبالغ كتاب الجرائد في وصف المذابح والفظائع البلغارية التي حصلت في « بطق » وهولوا كثيراً. ولكن أفعال الترك في بلغاريا كانت اذ ذاك على درجة من الخشونة لم يسع انكلترا معها الا رفع الصوت الجمهوري بالاستنكار العادل والمقت الحق بصرف النظر عن الكتابات المهيجة التي كان ينشرها في الملأ أقدر الكتاب وأشهر الساسة كالمستر غلادستون وقد انضمت الصرب والجبل الاسود أيضاً الى صفوف البلغار الثائرين. فكان لا بد لتركيا من استجماع كل مجهود لمنازلة خصومها العديدين. وعبثاً حاولت الدول العظمى ان تتوسط بين الطرفين. وانعقد مؤتمر في يناير سنة ١٨٧٧ بمدينة الاستانة فرفضت اقتراحاته وأعلن على اثره قانون اساسي دستوري على شكل اقرب الى التمثيل الروائي منه الى الشكل الجدي المزمع التنفيذ. وانفرطت روسيا من عقد الاجتماع الدولي الاوربي وانبرت معلنة الحرب على الدولة في ابريل سنة ١٨٧٧ ولسنا نعرف حقيقة الاسباب التي دفعت القيصر الى شهر العداء على العثمانيين فبعضهم يقول ان القيصر اندفع بعامل حب الفتح والتوسع في الاملاك وآخرون يقولون بل احتراماً لرغبة السلافيين رعاياه اذ كانت كل اميالهم وعواطفهم متجهة نحو شقيقتهم الصغرى بلغاريا. كذلك ليس من الامور المعروفة ما اذا كانت الدول باتفاقها معاً على حل المشكل وبلوغ المآرب من غير سفك الدماء تصيب النجاح أم لا. ومهما يكن من حقائق الامور فقد ابتدأت الحرب وأظهر الترك في اولها بسالة خصوصاً في آسيا حيث كسبوا موقعة « قزل تابي » وطردوا الروس من « قارس »

أما في اوربا فلم يحاولوا منع الروس من عبور الدانوب واحتل الروس « طرنوه » و « نيقوبوليس » وأرسلوا كوكبة سريعة من الفرسان لاجتياز جبال البلقان بقيادة الجنرال « جوركو » ولكن كان اشد مظاهر الحرب هولا وبسالة



مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨

دفاع عثمان باشا عن « بلفنا » فلقد حاول الروس والرومانيون عبثاً الاستيلاء على حصونها عنوة بعد جهاد خمسة اشهر انكسروا في خلالها مرتين في العراء انكساراً شديداً . واخيراً في ديسمبر تضافرت الرشوة التي قدمت بسخاء لقواد الجيوش

الآتية بالمدد والذخيرة التركية مع الجوع على احداث النتيجة التي عجزت اضخم المدافع وأهم الاسلحة والعدد واوفر الجنود على الظفر بها وبرز عثمان باشا على رأس جيش من زهرة ابطال العثمانيين ونخبة رجالهم يريد ان يقتحم طريقاً للخروج وسط صفوف العدو المحاصر ولكنه اخفق واضطر الى التسليم وخسرت روسيا مع ذلك في حصار بلفنا ٥٠٠٠٠ من خيرة عساكرها

وبتسليم بلفنا لم تصبح نهاية الحرب بعيدة فقد اضطر مختار باشا الى الاعتصام بارمينية بعد أن اخذ الروس منه قارس وجاوز الجنرال جوركو سلسلة جبال البلقان مرة اخرى سنة ١٨٧٨ وكانت اذ ذاك مغطاة بالثلوج فلاقت الجنود الروسية في الصعود على احد سفحيها والانحدار على السفح الآخر مشقات عظيمة واحتل الاعداء صوفيا وبعد قتال عنيف باسل في ممر شبكا انحدر رادستكي بجنوده وامضيت شروط الصلح التمهيدية في أدرنه والروسيون شاهرون السيوف (كما كان في سنة ١٨٢٩)

ثم أمضيت معاهدة في سان استفانو في الثالث من مارس بحضور الجيش الروسي الذي كان معسكراً على ساحل بحر مرمره ولكن الشروط [1] كانت مجحفة بحقوق الدولة ومضرة بها الى درجة تداخل معها اللورد بيكونسفيلد. فكانت نتيجة ذلك أن معاهدة برلين المؤرخة في يونيو سنة ١٨٧٨ الغتها وحلت محلها . وبمعاهدة

---

(١) شروط معاهدة سان استفانو :

(١) تستولي الروسيا على باطوم وقارس من أعمال أرمينية وتأخذ بسارابيا من رومانيا وتعطيها بدلها دبروجه من أعمال بلغاريا

(٢) أن يعترف الباب العالي باستقلال رومانيا والصرب والجبل الاسود ويزيد أراضي كل منهما

(٣) أن يمنح البوسنه والهرسك الاستقلال الاداري تحت اشراف الروسيا والنمسا معاً

(٤) أن تكون بلغاريا امارة مستقلة استقلالا داخلياً تاماً مع قيامها بدفع الجزية للسلطان وان تكون حدودها من الطونه الى بحر الارخبيل فتدخل فيها أرض بلغاريا الحقيقية والروملي الشرقية ومقدونيا ويكون عليها أمير منتخب وفيها مجلس نيابي من أهلها ويشرف على سير الاعمال الادارية فيها قوميسير عالي روسي يؤيده ٥٠ ألفاً من الجنود مدة سنتين

(٥) هدم وازالة جميع الحصون والمعاقل العثمانية المقامة على الطونة واصلاح حكم وادارة البانيا وتساليا وسواهما من أقاليم تركيا في أوربا مع تعهد الدولة العثمانية باجراء الاصلاح في ارمينية من غير ابطاء

برلين التي تسجل تقسيم تركيا بموافقة اوربا رغم مواثيق وعهود سنة ١٨٥٦ اعترف باستقلال الصرب والجبل الاسود ورومانيا وخلقت أمارة دعوها امارة البلغار وجعلوها قسمين احدهما يتمتع بالحكم الذاتي والثاني جعل تحت حكم الدولة العثمانية وأعطيت تساليا لليونان واستعادت روسيا اقليم بسارابيا الذي انتزع منها سنة ١٨٥٦ كما أنها استبقت فتوحاتها في آسيا وهي قارس وباطوم واردهان . وفي مقابل مساعي انكلتره في هذا التعديل استولت على جزيرة قبرص مع بقاء سيادة السلطان ودفع الجزية السنوية

وهكذا انقصت تركيا الى المساحة المحدودة الضيقة النطاق التي كانت لها الى ما قبل الحرب البلقانية . ولقد كانت باتساعها القديم ايام كان الباب العالي لا يقتصر في حكمه على الاقليم الضيق المعروف الآن بتركية اوروبا بل يحكم ايضاً اليونان وبلغاريا والروملي الشرقية ورومانيا والصرب والبشناق والهرسك والقرم وبعض روسيا الجنوبية وآسيا الصغرى الى حدود الفرس ومصر والشام وطرابلس وتونس والجزائر وارخبيل البحر الابيض المتوسط ـ بصرف النظر عن بلاد العرب ذات الجهات الصحراوية والمساحة العظيمة ـ تأوي من السكان ما يزيد عن ٥٠ مليوناً في اراض تزيد مساحتها عن مليونين من الاميال المربعة اي قدر اوربا ما عدا الروسيا مرتين تقريباً . فانتزعت منها ايالاتها واحدة بعد أخرى وصار عزها القديم في خبر كان . ومع ذلك فان من الانكليز من لا يزال يذهب بالتفاؤل الى حد القول بامكان نهضة المسلمين نهضة عامة في المستقبل بزعامة خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين نهضة ترجع بها الى الدين عزته والى الاسلام سطوته والى العيش نضارته وغضارته ويكون الترك كما كانوا شعباً ساذجاً على الفطرة السليمة والاخلاق الكريمة ترتكز فيه مكارم الخلال ومحاسن الخصال على عزم اثبت من الجبال وامضى من النصال ويلتقي في صدره اباء النفس بشدة البأس وطهارة الابرار بشهامة الاحرار. ويقول اولئك المتفاءلون ان في طبيعة الشعب التركي استعداداً للرقي وقبولاً للنهوض وأنه لا يعوزه الا مرشد يهديه ويقوده وعبقري يصلح من سائر شؤونه وان الامل قوي بان الهلال الذي نما نموه فصار بدراً وعاد محاقا يمكن ان يصير بعد المحاق هلالاً وبعد الهلال بدراً يذر نوره على الخافقين وان للدهر لدورة وفي حوادث الزمان لعبرة

الفصل الخامس

الانقلاب العثماني

استبداد عبد الحميد الثاني ــ الغاء الدستور ــ رجال المابين والجواسيس ــ الفتك بالاحرار ــ المهاجرة ــ ثورة الارمن ــ المذابح الارمنية ــ عطف أوربا على الارمن ــ دسائس الجمعيات الارمنية ــ اعتداء الارمن ــ الثورة في حوران وكريت ــ دسائس اليونان ــ حرب الترك واليونان ــ انتصار أدهم باشا ــ مشكلة كريت ــ ثورة اليمن ــ انشاء سكة حديد الحجاز ــ المسئلة المقدونية ــ تعدد الجنسيات في مقدونيا ــ اعمال العصابات ــ مشروع مرزتج ــ نشأة الحرية العثمانية ــ تأثير آداب اللغات الغربية ــ رأي المستر حب ــ تركيا الفتاة ــ ازدياد وطأة استبداد المابين ــ جمعية الاتحاد والترقي ــ انتشار الافكار الثورية في الجيش ــ المطالبة بالدستور ــ الابتهاج باعادته ــ اوربا بعد اعادة الدستور التركي ــ سلطة جمعية الاتحاد والترقي ــ خيانة عبد الحميد للدستور ــ خلعه وتولية السلطان محمد الخامس .

كان اكثر الناس تطوحاً وراء الآمال والاماني واشدهم تفاؤلاً بالخير وحسن المستقبل للدولة العلية العثمانية واكبرهم رجاء بتقدمها ورقيها في مآلها اقلهم ثقة بامكان حصولها على يسير الاصلاح وضئيل الفلاح على يد السلطان عبد الحميد الثاني الذي بدلاً من أن يعمل على ما فيه سد الثلمة ورأب الصدع وتقويم المعوج ودفع الاطماع الناشبة أظفارها في جسم الدولة من كل الجهات بما يتخذه من الوسائط لنشر العلوم والمعارف وتسهيل سبل التجارة والاخذ بيد الصناعة والعناية بالزراعة مع دفع الاقوياء عن الضعفاء بسلاح العدالة وبذل الاحسان والرفق لسائر صنوف الرعايا لا فرق بين غني وفقير عظيم وحقير مسلم ونصراني عربي وتركي وكردي وأرمني بحيث تكون الدولة كتلة واحدة تستطيع استرجاع قوتها لاستعادة بعض ما فقدته بمعاهدة برلين وغيرها تفنن في استنباط وسائط الاستبداد الغاشم وعمي عن كل شيء الا عن المحافظة على حياته ولو ماتت بسبب توهم الخطر عليها الالوف من رعاياه التعساء . فلقد بدأ سلسلة سيئاته بالغاء الدستور الذي رتب قواعده أبو الحرية العثمانية المأسوف عليه مدحت باشا (١٨٢٢ ــ ١٨٨٤) ثم جعل مقاليد الامور جميعها في يد جماعة من حاشية السراي ممن اشربوا حب السياسة الرجعية ومهروا في تطبيقها على نحو يعود بالبلاد القهقرى بسرعة عظيمة . وفقد الباب العالي أو الوزارة الاسمية كل شيء من النفوذ والسلطة وأصبح الوزراء بل وسفراء الدول الاوربية ايضاً ألعوبة في يد

السلطان عبد الحميد . ولقد جمع صنائعه ومن اصطفاهم للقيام باعمال الادارة وشؤون الحكم القناطير المقنطرة من الاموال وغنموا المغانم العظيمة من وراء خوف السلطان وهلعه من القتل غدراً وكان له من الجواسيس جيش جرار كان على ما يقال يصرف عليه ألف الف من الجنيهات سنوياً وغصت الدولة من اقصاها الى اقصاها بالعيون والرصاد فما سلمت دار آمنة أو جماعة هادئة من تسرب العيون اليها واندساسهم فيها يعكرون عليها صفوها ويدسون عليها من الوشايات والسعايات ما يذل به عزيزها وتوطأ به حرمانها وتقفر به عرصاتها وتخبو به نارها وينطفىء به سراجها فامتلأت السجون



مدحت باشا

بالناس من سائر الارجاء واتخمت بطون الاسماك في قعر البوسفور بلحوم الابرياء . وكان السعيد من وفق الى الهجرة عن بلاد آبائه وأجداده الى حيث يشم نسيم الحرية بعيداً عن مواطن التهلكة ومراتع العبودية . فخلت البلاد من ساكنيها وعفت الدساكر من قاطنيها وأصبحت العواصم بلاقع والثغور دوامع. وكان الناس متساوون كاسنان المشط امام تعسف عبد الحميد وظلمه فلم يرحم مسلماً ولم يرث لحال نصراني لا التركي كان له من جنسيته شفيع ولم يكن للارمني في رحمته مطمع . فكان حكم

المابين الذي ملك على السلطان اذنه من شر ما ابتلى به العثمانيون من العذاب ومن أفظع ما ورد على البشر من صنوف التجبر والارهاب وامتدت يده الثقيلة القاسية الى سائر الاعمال فكانت أمور المالية والجيش والشرطة وسائر المخابرات الدولية تدبر داخل السراي وأصبح الوزراء ولا حول لهم ولا قوة في الصغير والكبير من الامور

وكان للدول الاوربية حق التداخل بما خولتها اتفاقات باريس وبرلين ولكنها كانت تخشى ان ينفتح باب التنافس والتزاحم ويدخل منه الشر والحرب والمنازعات الدولية ولذلك آثرت الصمت واعتصمت بالاناة . على ان الامور سارت من ردىء الى أردأ منه وأقلق الدول خوفها على زوال الامتيازات التي سعوا في الحصول عليها من جملة من السلاطين العثمانيين لتأمين جانب رعاياهم المسيحيين لانهم رأوا أن اعوان عبد الحميد يسلبون العناصر غير الاسلامية حقوقاً كانت لهم ويطالبونهم بواجبات لم تكن عليهم . لذلك تظاهر الارمن سنة ١٨٩٠ فرأى ولاة الامور في تظاهرهم خروجاً على الدولة وانكاراً لسيادتها يعاقبون عليه بشدة عظيمة لا ترحم ولكن الارمن لم تقمع حدتهم لاول وهلة مع انهم من الطوائف المسالمة المتساهلة الداجنة . على أن السلطان لذلك ركب في توقيع العقاب عليهم متن الشطط وقسى عليهم قسوة عظيمة وذبح منهم في سوسان وغيرها سنة ١٨٩٤ خلقاً كثيرين تجرعوا غصص انصياعهم لتحريض الجمعيات الارمنية المحتمية بحمى لندرة وباريس . ومما هو جدير بالذكر ان الارمن غير محبوبين من الاوربيين لان هؤلاء يرون فيهم عيوباً أخلاقية تربو على ما لهم من السجايا والمزايا الكريمة ولم يكن لهم من شفيع لدى المتنطعين والمتعصبين من الغربيين غير تدينهم بنوع من الديانة المسيحية يكفل لهم تحيز وعطف وشفقة أولئك الذين يحكمون في الامور من غير روية فيعتقدون أن الدولة لم تنكل بهم الا لانهم مسيحيون.وتأثرت الدول والحكومات بالرأي العام الابله الجاهل فانبرت لمد يد المساعدة للارمن وتألفت لجان التحقيق سنة ١٨٩٥ ونشرت الكتب الزرقاء الرسمية . وبينما كانت أوربا تسعى في اصلاح الاحوال كانت الجمعيات الارمنية البعيدة عن الخطر ترمى الحطب على الفتن الارمنية فتزيدها اشتعالاً وتدفع بالارمن الى أتون النار وهي بعيدة عن الاخطار فقد قيل ان السفطاء وطلبة العلوم الدينية قتلوا من الارمن جماً غفيراً لما ظهر من هؤلاء من العناد والقحة بتحريض تلك الجمعيات البعيدة التي نفثت سمومها في سكان بناس وأذربجان وزيتون وغيرها من بلاد آسيا

الصغرى فجنوا على انفسهم وقامت المذابح بين ظهرانيهم على ساق وقدم

وليس أدل على حب الارمن للمشاغبة ورغبتهم في الفتن وتحرشهم بمواطنيهم من رميهم القنابل على البنك العثماني في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٦ فان عملهم هذا أسخط عليهم سائر العقلاء من كافة الملل والنحل ولم يجسر أشد الناس اعجاباً بهم على التماس المعاذير لهم . ولذلك جازاهم سكان العاصمة بجنس عملهم فقتلوا منهم على ما يقال ٣٠٠٠ وأرغموا سبعة أمثال هذا العدد على مبارحة البلاد . وصم الباب العالي اذنه عن سماع الاحتجاجات كما انه لم يقم بتنفيذ ما طلبته الدول من صنوف الاصلاح

ولم ينفرد الارمن بالقيام في وجه الدولة فقد ثار الدروز في حوران وقمعت ثورتهم



ادهم باشا

واشتد الهياج في جزيرة كريت فسعت الدول العظمى لدى السلطان في تعيين حاكم مسيحي لها مع انشاء مجلس نيابي واعلان العفو العام عن العصاة والمجرمين السياسيين. على أن اهل كريت ما برحوا يثورون ويتمردون ويعصون بتحريض مملكة اليونان ودسائسها ومساعداتها بالمال والرجال حتى نفد صبر الدولة وأعلنت الحرب التي اكتسح فيها أدهم باشا تساليا في ابريل سنة ١٨٩٧ وأدب فيها المحرضين والدساسين وضرب على أيديهم بحيث لم يحل ديسمبر من السنة نفسها حتى اضطرت أثينا الى طلب الصلح وهي صاغرة ولا عجب فان اليونان لم يكونوا يوماً من الايام انداد الترك الأشاوس في

الحرب ونظراءهم في ضروب البسالة وفنون القتال . على أن كريت بقيت مع ذلك شجى في حاق السياسة الدولية وذهبت أتعابها في حل المسألة الكريتية ادراج الرياح ولم يستتب شيء من النظام الا بفضل قواد أساطيل انكلترا وفرنسا وروسيا وايطاليا. واخيراً اضطرت الجنود التركية الى الجلاء عن الجزيرة في نوفمبرسنة ١٨٩٧ وغادرتها على رغم أنف السلطان وتعين الامير اليوناني جورج حاكماً عليها وباستعفائه سنة ١٩٠٦ وتعيين المسيو زايميس خلفاً له صارت كريت في الواقع جزءاً من المملكة اليونانية

وكأن الدولة قد قدر لها في ذلك الوقت أن لا تخلص من ورطة حتى تقع في شر منها وذلك أن اهل اليمن قاموا قومة رجل واحد يريدون التخلص من السيادة التركية وكان عليهم من حكام الترك رجل يقال له احمد فيضي باشا لم يعرف عنه انه سعى في اصلاح ذات البين بين الدولة ورعاياها أو عمل على نشر العدل والامن في ربوع البلاد. فارسلت اليهم الدولة الجيوش سنة ١٨٩٨ فعجزت عن تأديبهم واستمرت نيران الفتن مشتعلة لغاية سنة ١٩٠٥ وفيها استولى فيضي باشا على صنعاء ولكنه اضطر الى التخلي عنها في السنة التالية لتعذر الامداد والمساعدة من القسطنطينية. ولم تكن هذه الثورات العربية الكثيرة لتستفيد منها الدولة الا تنبهها الى وجوب انشاء سكك حديدية تربط بها أجزاء الامبراطورية المترامية الاطراف ولذلك أجاز السلطان انشاء خط من دمشق الى الحجاز فابتدأ العمل فيه من ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٠ ووصلوا به الى المدينة المنورة بهمة وسرعة غير عاديتين في صيف سنة ١٩٠٨ هذا وان فوائد السكة الحجازية لا يمكن أن تخفى على أحد خصوصاً متى تم اتصالها بخطوط الاناضول وخط بغداد الواصل الى القسطنطينية . ولا شك ايضاً أن وجود خط الحجاز يسهل الحج على مريديه ويجمع المسلمين على اختلاف مساكنهم وتباعد مواطنهم كل عام في صعيد واحد فتزداد الاخوة الاسلامية ارتباطاً والجامعة المحمدية وثوقاً وتتم أمنية عبد الحميد الثاني ويستطاع بواسطتها دوام حشد الجنود فتشترك مع سكة حديد بغداد في نقل الانفار من ابعد جهات السلطنة حيث يعلمون ويدربون ويكون بهم عز الدولة وبأسها كما ان بالسكك الحديدية العثمانية يتيسر تنظيم البلاد وتعمير الجهات واقامة اسواق التجارة وتعميم وسائل الحضارة ونقل كنوز الدولة وخيراتها المعدنية والزراعية والحيوانية

الى حيث يمكن الانتفاع بها فتمتليء خزائن الحكومة التركية بالاموال وتحسن الاحوال

على ان كل هذه الاماني ما كان ليمكن تحقيق بعضها مع بقاء حكومة الباب العالي على ما كانت عليه من الفساد والارتباك مما جعلها سخرية العالم ولم تكن لغاية عهد قريب لتظهر رغبة صحيحة او دليلاً نافذاً على الميل الى اصلاح الامور ولم ترد الدول العظمى ان تتداخل تداخلاً فعلياً في اصلاح الدولة مع ان الادلة قامت جملة مرات على ان اظهار شيء من القوة كفيل بتقويم شيء من الاعوجاج

فحكومة الاستانة لما اجترأت سنة ١٩٠١ على فض اكياس البريد الاجنبية المختومة لتوهمها احتوائها على خطابات مريبة تظاهرت الدول بأساطيلها فاعتذرت الدولة وتعهدت أن لا تعود لمثل ما فعلت

ولما رفضت الاستانة التسليم ببعض المطالب الفرنسية ورست السفن الحربية الفرنسية على جزيرة مدلة سنة ١٩٠١ أجيبت سائر المطالب الفرنسية وزيادة بعد مضي ما لا يزيد عن خمسة أيام . وكذلك لما رأت الدول من الضروري تشكيل لجنة دولية لجمع الضرائب وضبط الاموال في مقدونية سيرت أسطولاً مؤلفاً من سفن نمساوية وبريطانية وفرنسية وايطاليـة وروسية فاحتل مدلة في نوفمبر سنة ١٩٠٥ وأنزل بهـا جنوداً مختلطة فلم يسع السلطان الا احترام قرار الدول في ديسمبر من السنة نفسها

على ان تداخل الدول بالقوة في شؤون تركيا ما كان ليحصل مرة الا بعد أن تعييها المخابرات والمفاوضات الطويلة وبعد أن ينقضي وقت طويل يعظم فيـه هول الاضطراب والفوضى في ارجاء السلطنة السنية . ولما ظهرت المسألة المقدونية كسفت المسألتين الارمنية والكريدية وكان ابتداء استفحال شأنها منذ سنة ١٨٩٨ وقد أعيا حلها اذكى رجال الوزارات الخارجية في أوربا على غير طائل . وقد كان يراد ايجاد ولاية مستقلة فيها بالشؤون الداخلية على نحو ما كانت بلغاريا أو بعبارة اصح على نحو ما كانت الروملي الشرقية قبل أن تستلحقها بلغاريا سنة ١٨٨٥ غير أن مشكلة المشاكل في الموضوع كانت تعدد جنسيات السكان مع طمع وتنافس الممالك المتاخمة أي اليونان وصربيا وبلغاريا . ولقد ظل الاقليم العريض المحصور بين الادرياتي وأدرنه مدة طويلة

وهو فريسة العصابات المتوحشة المسلحة من الارناؤد واليونان والصرب والبلغار وكل عصابة منها مرتبة ومنظمة لا لسوى الانتقام والدفاع وقتل أهل القرى المؤلفة من جنسيات معادية كما أن هـذه العصابات نفسها كانت كثيراً ما تقع بين براثن الجنود التركية . وكانت ولاية مناستير على التخصيص أهم ميدان لفظائع العصابات ومنكراتهـا فكان مسلموها ومسيحيوها على السواء يشتركون في الفوضى والهياج واليونان والارناؤد من أهليها لا يفتأون يشنون الغارات على الترك والصرب والبلغار من مواطنيهم فكانت تسيل الدماء أنهاراً ويعم الخراب والدمار كل مكان وتعثو عفاريت البوار والاختلال فساداً في سائر الجهات . ولم ينتج عن مشروع الاصلاح المعروف بمشروع مرزتج الذي قدمته بريطانيا والنمسا وروسيا لتركيا سنة ١٩٠٤ ما كان يقدر له من النجاح كما أن المعاهدة المبرمة بين تركيا وبلغاريا في أبريل من السنة نفسها والتي بها تعهدت الثانيـة بمنع الجمعيات الثورية من أن تعمل على النكاية بالاولى في أرضها لم تفلح . وقد وجد أن البوليس الذي ألفته أوربا سنة ١٩٠٣ بقيادة زعماء من الاجانب غير كاف لتنفيذ الاصلاح الذي رسمه مشروع مرزتج وان القتال والهياج والمذابح لم تنقطع لحظة واحدة فكانت الخطوة التالية ايجاد رقابة مالية دولية بعد تظاهر الاساطيل الذي سبقت الاشارة اليه سنة ١٩٠٥ على أن كراهة وعداوة الجنسيات المختلفة المؤلفة منها مقدونيا ما كانت لتزيلها مثل هذه الاجراءات بل استمرت المشاحنات جارية مجراها الطبيعي وأهمل شأن البوليس الدولي باحتقار ونخر دود الفساد في جسم النظم القضائية ولم تصدر أحكام رادعة على مرتكبي الجرائم العظيمة وعاثت عصابات الصرب واليونان والبلغار المسلحة في الارض فساداً فكانت تنقض على القرى الآمنة المطمئنة فتشبع اهاليها المساكين قتلا ونهباً ثم تلوذ بشعاف الجبال وبطون الصخور بعد أن تفعل كل ما تستطاع من الفحش والمنكر هازئة بالترك والبوليس الدولي واللجنة الدولية غير حاسبة لها حساباً أو خاشية لها بأساً . ولم تقف فظائعها قليلا الا بعد حصول الثورة الدستورية التركية تلك الثورة التي تعد من أعجب الثورات التي حصلت في أوربا والتي يعتبر وقوعها أبهر ما وقع في تركيـا من الحوادث

نشأت ونمت في أرض تركيا حركة فكرية كان يغذيها ويسقيها ويتعهدها بالعناية جماعة من أذكياء العثمانيين الغرباء وكان لا بد لهـذه الحركة من نتائج سياسية تنجم عنها كما أن تأثير نتائجها كان لا بد يكون عظيما

وسبق العلامة المأسوف عليه المستر (جب) غيره من حكماء الاوربيين الى التنبوء بما سيكون لتلك النهضة الفكرية العثمانيـة من الشأن العظيم وذلك لان اهتمامه الفائق بدرس الآداب العثمانية وحسن معرفته بها اضطرته الى الاختلاط بادباء الترك وكبار مفكريهم وقادة آرائهم . وقد انفرد بنفسه بين سائر البريطانيين بدقة تقدير ما كان يختمر برؤوس أفراد ذلك الشعب الذي كان يحب آدابه محبة عظيمة ذهبت به الى وقف كل ساعة من ساعات حياته القصيرة على خدمتها كما أنه كان أكبر الاوربيين أملاً بنهضة وارتقاء الامة التركية . ولقد ابان كيف أن منتصف القرن التاسع عشر قد شهد تأثير آداب لغات الغربيين في التعليم والتربية وكيف ان جماعة من أذكياء شبان الترك لم يكادوا يشرعون في تعلم الفرنسية لضرورة كونها لغـة السياسة حتى تعشقوا آدابها واستهوتهم افكارها نخلبتهم الفاظها الشائقة واستعبـدتهم معانيها الرائقة وفتنهم ما وجدوا فيها من العذوبة الساحرة وبهرهم ما عثروا عليه في كتبها من آثار البلاغة الظاهرة فنسوا مرارة الغربة بحلاوتها واستصغروا كل طلي في جانب طلاوتها . وبعد ان كان الترك الذين يعرفون الفرنسية قبل سنة ١٨٥٠ يعدون عداً لقلتهم أصبح كل رجل وامرأة بعد ذلك تدعي أنها على شيء من التعليم والتربية تعرف شيئاً من تلك اللغة قراءة وتحادثاً بقليل أو بكثير من الصعوبة . وقد ترجمت في السنوات الاخيرة الى التركية كتب ومؤلفات فرنسية لا تحصى في العلوم الطبعية والموضوعات الادبية بحيث تمكن الذين يجهلون اللغات الاوربية أو لا يعرفونها معرفة تامة جيدة من الوقوف على درجة التفكير الاوربي وقـد أصبح علماء الترك وأدباؤهم يسيرون على النهج الفرنسي في الفلسفة والتمثيل والروايات التمثيلية وغير التمثيلية والشعر . وكان مقدام هذه الحركة المباركة شناسي افندي الذي تعلم وتثقف في باريس ونقل سنة ١٨٥٩ شيئاً كثيراً من الشعر الفرنسي ثم أنشأ في القسطنطينية جريدة لترويج واذاعة الآراء الاوربية وقد عضده التركيان الالميان كمال وضياء بحيث انه في سنة ١٨٧٦ وأيضاً في سنة ١٨٧٥ أقلقت الافـكار الحرة العصرية التي انتشرت في طول البلاد وعرضها بال الحكومة العثمانية وأزعجتها كثيراً فاتخذت كل الاجراءآت الشديدة لمصادرتها وتوقيف تيـارها ومعارضة نفوذها والضرب على ايدي اربابها ومروجيها ومعاقبتهم بالنفي الى ممالك أوروبا الغربية . ولما مات اولئك الزعماء طيب الله ثراهم وعطر ارضي منفاهم خيل للناس ان النصر النهائي كان لارباب القدم الرجعيين وان حركة الحرية

الفكرية الآيلة الى الحرية السياسية حتما قد دقت عنقها

على ان هذا الوهم لم يبد للاديب الاسكوتلاندي نعني به المستر جب المشار اليه صديق الترك واللغة التركية . لانه لم يكن اعلم منه انسان خارج عن دائرة تركيا الفتاة بحقيقة الحال . فكان يعتقد ان الحركة لم تنقطع جذورها وانها عاملة مستمرة في بطء وخفاء وانها لا بد يوماً تظهر وتتغلب على رجال المابين المتحكمين في شؤون الدولة وادارتها كما انها لا بد تقلل من تأثير علماء الشرع الجامدين وقد جاءت الايام بما دل انه كان على حق فيما يعتقد وليس ادل على اعتقاده ذلك من قوله[1] «لقد تغيرت احوال تركيا الاخلاقية والفكرية تغيراً ظاهراً وهذا التغير وان لم تبد له نتائج فعلية الى الآن الا ان الدلائل قائمة على وجوده في كل مكان فقد نشأ عند الترك مدلول جديد للفظ واجب وكان الدين في سالف الزمان هو الكل في الكل ولم يكن التركي في سابق امره ليعلم غير انه مسلم وكفى فلم تكن لديه فكرة الجنسية على الاطلاق. ولذلك كان اذا سار الى الحرب لا يسير لاعلاء شأن او توسيع حدود تركيا بل قضاء لشهوة الفتح والسيادة أو على الخصوص قهراً للكافرين والمشركين واذلالهم تحت اقدام عباد الله المخلصين المؤمنين . وكذلك لم يكن لديه للوطنية معنى مثل المعنى المعهود لدى الفرنجة ولم يكن ليفرق بين الموت في سبيل الوطن أو الموت في سبيل خط الزوال

« أما الآن فقد تناول التغيير هذا الموضوع أيضاً واصبح اتراك اليوم لا يقدسون شيئاً او يحبون امراً حبهم لوطنهم . وحملهم حب التغيير والاصلاح على جعل لفظ «ملت» يدل لا على الجماعة الذين يدينون بدين واحد أو يتعلقون باهداب مذهب واحد بل على الشعب أو الامة . ولا ينبغي أن ننسى اللفظ الثالث الذي جعلوا له معنى جديداً غالي القيمة عظيم الاعتبار وجعلوه يؤلف مع اللفظين المتقدمين وهما « وطن ـ ملت» الثالوث السياسي الذي يعبده شبان الترك ويسجدون له ونعني بهذا اللفظ « حريت » . والالفاظ الثلاثة هي الالفاظ التي تداولها الترك من يوم ان فكروا في ترك القديم الضار ونقل الحديث الصالح وهم يتوارثون معانيها السامية كابراً عن كابر ويعتقدون ان نهضة واصلاح الدولة التركية لا تكون الا بنقش هذه الالفاظ الثلاثة على صفحات الصدور. ولذلك راح كثير من اذكياء الترك ومفكريهم شهداء اذاعة هذه المبادىء الحديثة بعد أن فازوا بتعميمها بين جماهير مواطنيهم فكان الانقلاب الفكري العثماني من اكثر

(١) في كتابه الشعر التركي

حوادث الايام الأخيرة خطورة وأهمية وغرابة . وساعد على تقوية هذه الحركة المباركة فشو التعليم والتربية بين سائر الطبقات ذكوراً واناثاً وانزوت تلقاء ذلك الخرافات القديمة التي ألصقوها بالدين ظلماً كما انزوت خرافات المسيحية في ممالك اوربا أمام قوة العلوم الطبيعية وسائر ضروب الفنون وصنوف المعارف الحيوية النافعة . صحيح ان الافندي العصري من الاتراك اليوم لا يزال يعتبر نفسه مسلماً ولكنه لا يزيد في تعلقه بالاسلام عن تعلق متنوري الفرنجة بالديانة المسيحية

« فانت ترى أنه في عشرين سنة (من ١٨٥٩ ـ ١٨٧٩) قد انتقلت تركيا من حال الى حال ، من حضارة شرقية قديمة الى حضارة غربية عصرية . لقد ادت سائر الحوادث التي سبقت أيام السلطان سليم الشهيد الى حدوث الثورة الفكرية التي نحن بصددها ولا يعلم الا الله ماذا يكون من امرها بعد ذلك »

ونحن نزيد على ما تقدم قولنا انه قد مضت عشرون عاماً اخرى قبل ان تتحقق الآمال الحلوة اللذيذة التي كان يرجوها ذلك الاسكوتلاندي العالم ـ عشرون سنة من الاضطهاد والعذاب والقنوط بل الركود الآسن . ولكن الحقيقة ان تركيا الفتاة كانت تستجمع قواها في خفاء وصمت وان المنفيين في باريس وجنيف ورومية ولندرة لم يكونوا عبارة عن ادباء فقط لهم أفكار وآمال سابقة كثيراً لاوانها بل كانوا متشرعين وأساتذة في الطب والعلوم الطبيعية منضماً اليهم جماعة من الاعيان أيضاً والكل مشتركون في مقت وكراهة حاشية السراي التي ملكت على السلطان اذنيه . وقد بدأوا ينشرون من سنة ١٨٩٥ المطاعن في حكومة الاستانة لذلك العهد فكانوا كلما زادوا في التنديد بها زادت في منع مطبوعاتهم من دخول البلاد وضاعفت الحكومة عدد الجواسيس وعملت احصاء دقيقاً للسكان وأمرت بحجز كل ما يرد على الجمارك من الكتب والنشرات . وفي سنة ١٩٠١ أمرت كل اسرة تركية جعلت في خدمتها معلماً او مربية افرنكية باقالتها وطردها في الحال واشتد الضيق الى درجة آثر معها الالوف هجرة الاوطان على البقاء بدار الذل والهوان وفضلوا شم الحرية الفكرية والقولية في بلاد الغربة على الاسر والقيد في مسقط الرأس . ولكن محال على كل حال أن ينال التضييق منالا من التعليم والتربية الحديثة اذا اشرب كل منهما الافكار الاوربية العصرية . فالتعليم العالي رغب الناس في الحرية والمساواة الاجتماعية من غير اعتبار جنسية أو عقيدة . لذلك ثابر شبان تركيا الفتاة على تهريب مطبوعاتهم ومؤلفاتهم ودس

وسلهم ودعاتهم في كافة أنحاء السلطنة

وليس من السهل تحديد المسؤولية الواقعة عليهم في المشاكل المقدونية ولكن من الواضح انهم اجتهدوا في جذب الجيش الى جانبهم . وكان تذمر الجنود العائدة من الحملات العربية غير مدفوعة رواتبها غير معتنى بغذائها منهوكة القوى من متاعب الحروب في الصحراوات خير ارض خصبة لالقاء بذور الثورة والتمرد . وقد تم هذا



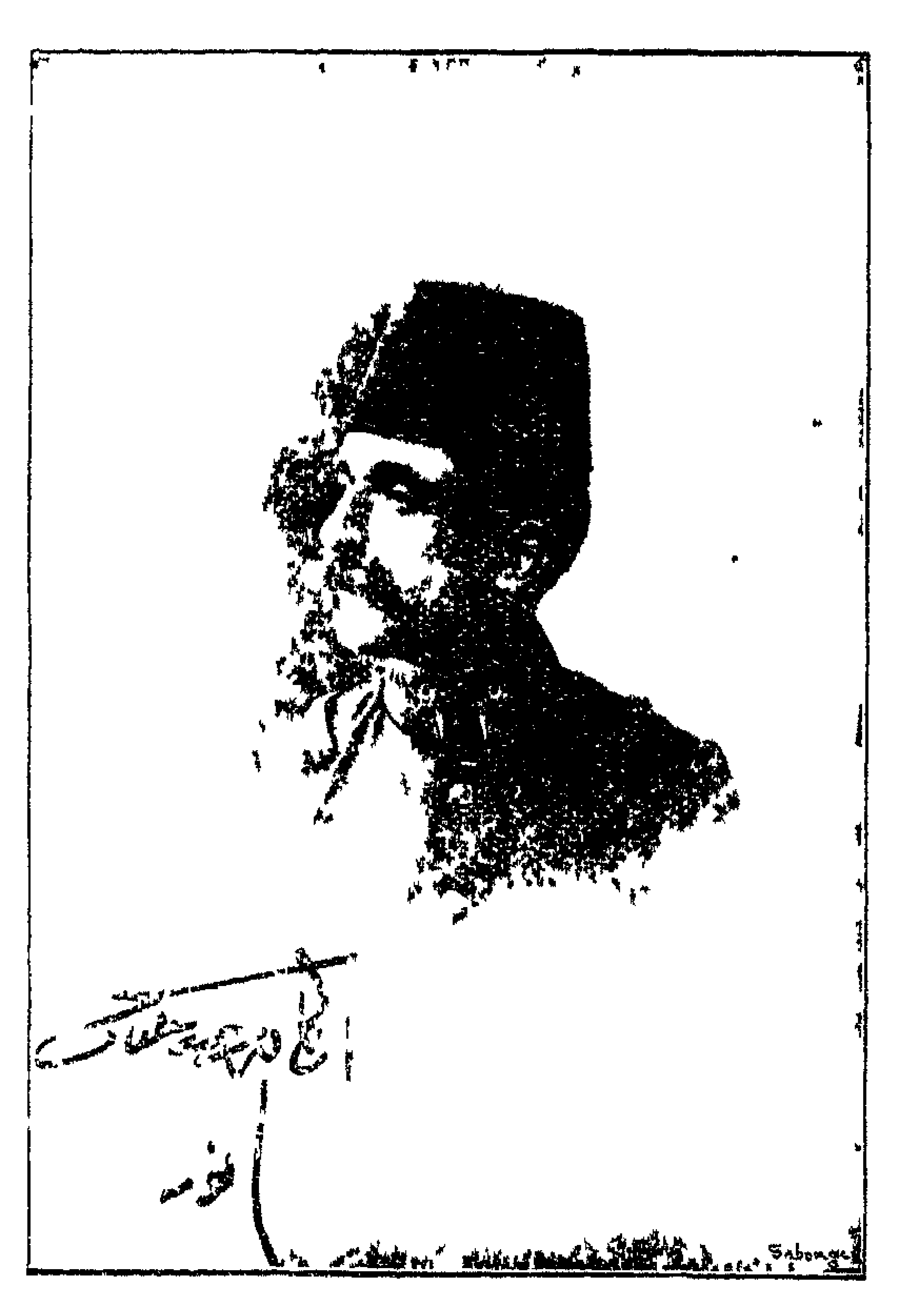
نياري بك

اولا بنجاح في بلاد الاناضول فقامت العساكر بمظاهرات على غاية النظام والاحكام ولم يحصل من تظاهرهم مذابح أو مشاغبات أو خلافات مذهبية بل كانت حركتهم مقدمة لتلك الثورة الهادئة التي احكمت تدبيرها وأحسنت تسييرها جمعية تركيا الفتاة

وكانت الحرب اليابانية قد حملت العثمانيين على الاعتقاد بان المستقبل للاسيويين فاسرع الفرس الى التعلق باهداب النظام الدستوري وكان لا بد لتركيا من السير في أثرها وكانت كل طبقات العثمانيين شاعرة بضرورة حصول ثورة الا طبقة المابين التي

أحاطت بعبد الحميد في قصره من كل جانب كما يحيط بالعنكبوت النسيج الذي ينسجه

وكانت قد تألفت في جنيف سنة ١٨٩٠ من رجال تركيا الفتاة جمعية دعوها الاتحاد والترقي انتقلوا بها الى باريس ثم الى سالونيك سنة ١٩٠٦ . وكان مراد الجمعية أن تنادي بنداء الثورة في ٣١ أغسطس وهو يوم عيد جلوس عبد الحميد ولكن الحوادث اضطرتها الى المبادرة بالعمل قبل التاريخ المذكور . وذلك ان الاتحاديين



انور باشا

خشوا تداخل أوربا بعد أن علموا بمقابلة ادورد السابع وقيصر روسيا في « ريفال ». وكان عبدالحميد قد استعد لقمع الفتنة العسكرية التي علم بوجود مقدماتها من جواسيسه. وكان الاتحاديون قد اكتسبوا ثقة الالبانيين وعطفهم بعد أن أقنعوهم بعدم فائدة التعدي على النمسويين الذين يريدون جمع الاعانات وعمل الاحتفالات لمدرستهم في اسكوب. وكان الالبانيون يريدون محافظة على قواعد الآداب منع اقامة المراقص والمعازف

المنوي اقامتها لهذا الغرض ومهاجمة القطار المقل للمحتفلين ومنع نشر الاعلام النمساوية في أرض عثمانية فانصاعوا الى مقالة اخوانهم في العثمانية وعلموا ان مثل ذلك التحرش برعايا دولة قوية طامعة لا يكون من ورائه الا الاحتلال النمسوي ثم انضموا اليهم وكتبوا جميعاً تلغرافاً الى السلطان يطلبون اعادة تنفيذ دستور سنة ١٨٧٦ . وكانت حوادث تجري في غضون ذلك تدل على انتشار الثورة بين الضباط والجنود الذين قتلوا بعضاً من الضباط الرجعيين وقام نيازي وأنور بالنداء للدستور وتعين سعيد باشا كوچوك



سعيد باشا كوچوك

صدراً أعظم في الثاني والعشرين من يوليو . وفي الرابع والعشرين نشر السلطان ارادة سنية باعادة العمل بدستور سنة ١٨٧٦ الذي أوقف العمل به منذ سنة ١٨٧٨ . وقد أُلغيت في الحال الرقابة على المطبوعات وابطلت أنظمة الجواسيس ودعي مجلس مؤلف من ٢٠ عضواً ينتخبهم مندوبون كل مندوب منهم يختاره جماعة من الذكور البالغين الذين لا يقل عمر أحدهم عن ٢٥ سنة . ولا تسل عن الفرح والسرور الذي شمل السلطنة من أقصاها الى أقصاها باعادة العمل بالدستور فقد تآخت عناصرها المختلفة

وتحالفت جنسياتها المتباينة وتصافى أتراكها وبلغاريوها وأروامها وورومانيوها ويهودها ومسلموها وزالت سائر الفروق وجعل الناس لا يعرفون تحت سماء البلاد غير لفظ عثماني وتعانق في جهات كثيرة الشيخ والقسيس كما ان زعماء العصابات المقدونية أخلدوا الى الدعة والسكينة بعد طول الهياج والشغب وصفقت أوربا طرباً واعجاباً بحدوث ما حدث من غير اراقة دماء تذكر وصرحت انكلترا بلسان وزير خارجيتها السير ادورد غراي بأن المسئلة المقدونية وما شاكلها من المسائل قد اختفت نهائياً

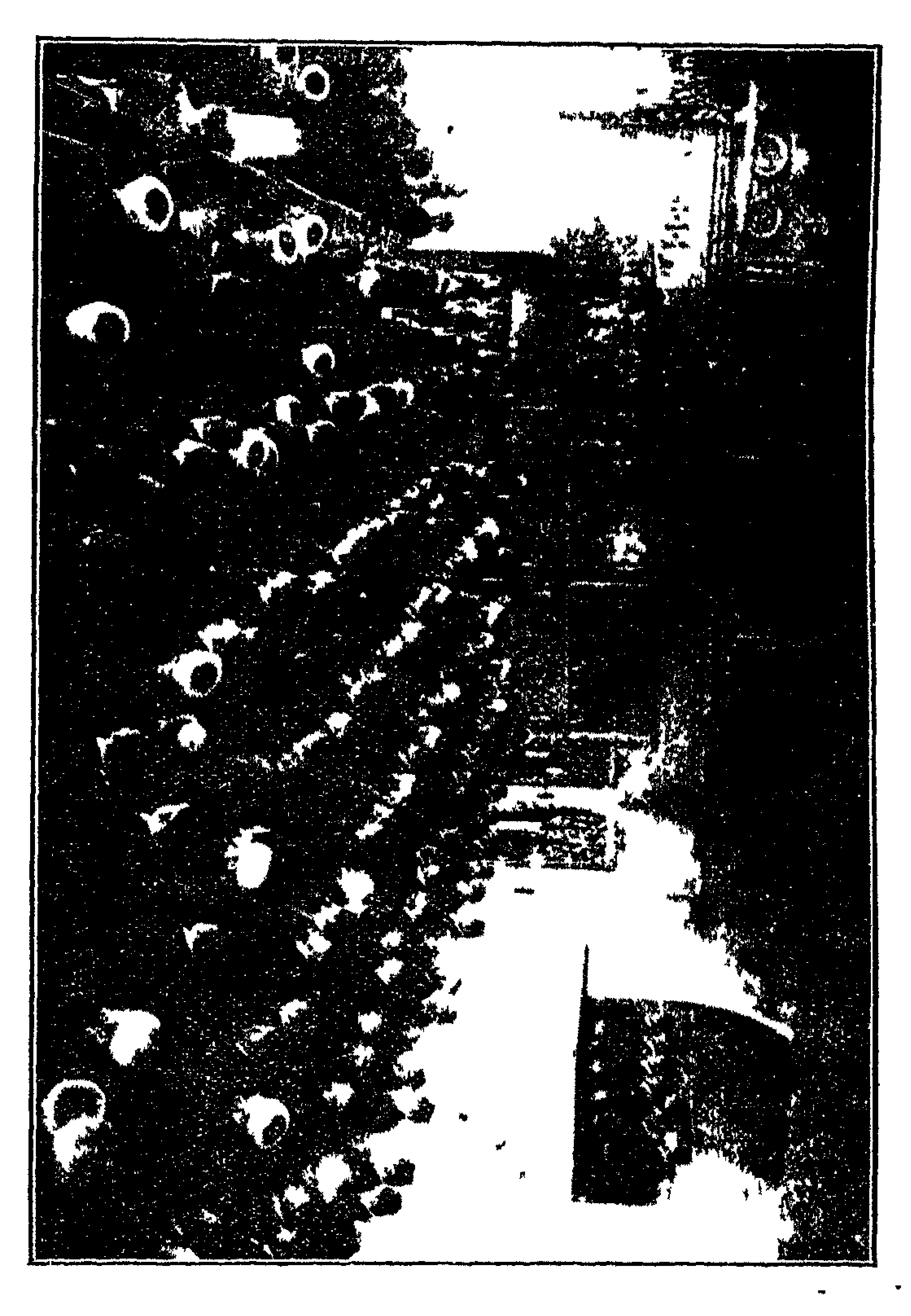


كامل باشا

بظهور الدستور ورحب أحرار البريطانيين بالنظام العثماني الجديد . وجرت جملة مظاهرات ابتهاج وغبطة في كل مكان وابعد الاتحاديون عزت باشا العابد وأقالوا وزارة سعيد كوچوك وجعلوا كامل باشا عوضاً عنه وصادروا أملاك الذين انتفعوا بمبادىء الحكم الحميدي القديم . ووثقت بهم دول اوربا بحيث ألغت رقابتها الاجنبية عن مقدونيا فاستدعت ضباط الجندرمة ورجال اللجنة المالية وتركت سائر أمور الدولة لحكمة جمعية الاتحاد والترقي وفطنتها

غير أن دولتين من دول اوربا انتهزتا فرصة اضطراب الاحوال في الدولة

وأعلنت الاولى منهما وهي بلغاريا في الخامس من اكتوبر سنة ١٩٠٨ استقلالها ونادت في طرنوه باميرها قيصراً عاماً على البلغاريين كما أعلنت ثانيتهما وهي النمسا بعد ذلك بيومين استلحاق البوسنه والهرسك نهائياً بعد أن خشيت تأثير الدستور العثماني



افتتاح مجلس المبعوثان

في تينك الولايتين. وقد أغضب عمل الولايتين المذكورتين صربيا والجبل الاسود وجعل الثاني يتهدد الدول بأنه تلقاء فعل بلغاريا والنمسا أصبح غير مقيد بالمادة ٢٩ من معاهدة برلين فيما يتعلق بميناء انتيفاري وقابلت تركيا ذلك بالاحتجاج وبمقاطعة البضائع

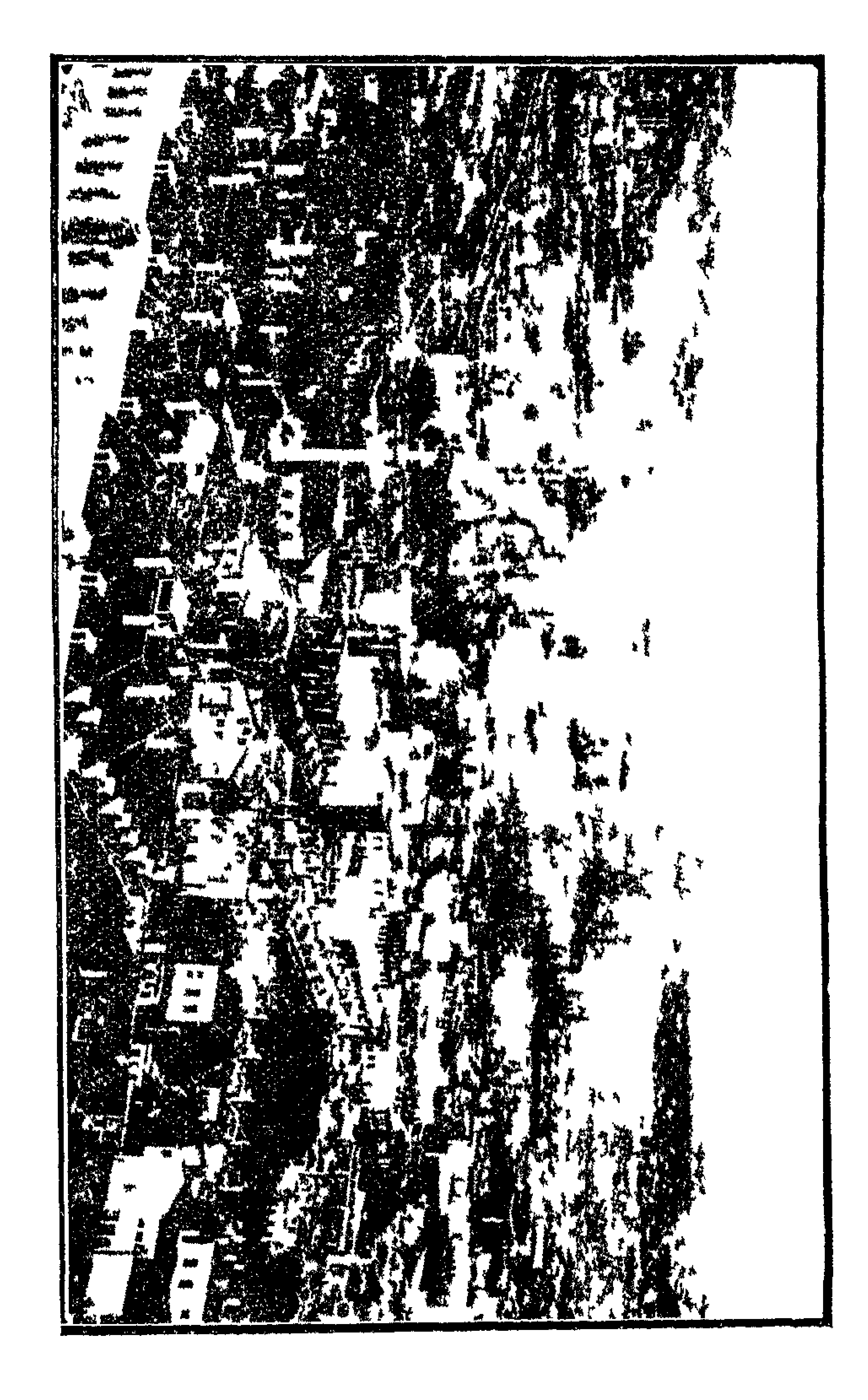
النمساوية دون ان تستطيع الظهور بمظهر القوة والدفاع عن حقوقها بالسلاح . ثم انهمكت في أعمال حكومتها البرلمانية فتمت الانتخابات وافتتح السلطان مجلس المبعوثان في العاشر من دسمبر واعلن فيه اخلاصه الدائم للدستور وأشار الى تعدي النمسا « ووالي ولاية الروملي » . وجعلت جمعية الاتحاد والترقي تظهر قليلاً قليلاً بمظهر صاحب السلطة والامر والنهي فاقالت كامل باشا انتقاماً منه لانه طرد وزيري



شوكت باشا

الحربية والبحرية وهما من رجالها . الا ان جمعية اللامركزية برئاسة اسماعيل كمال بك تصدت لها كما ان ثورة رجعية قامت في ١٣ ابريل سنة ١٩٠٩ في الاستانة بتحريض ودسائس عبد الحميد وبمعاونة الرجعيين وانصار الحال القديمة واحتل جماعة من الجنود قصر مجلس المبعوثان وقتلوا بعضاً من ضباط الحمية وتغيرت الوزارة وقتل بعض الوزراء ومع ذلك عفا السلطان عن رجال الحركة الرجعية في الاستانة كما اغمض العين على حوادث الارمن اذ ذاك فقامت المذابح فيهم في كيليكيا على ساق وقدم

ولذلك عزم رجال جمعية الاتحاد والترقي على معاقبته ومحاسبته حساباً عسيراً . فلما وصلت الاخبار الى سالونيك زحف المرحوم محمود شوكت باشا بجنوده الالبان على



الاستانة مطمح انظار الساسة الاوربية

الاستانة لحماية الدستور الذي حلف يمين الطاعة له واجتمع اعضاء مجلس الاعيان واعضاء مجلس المبعوثان في سان اسطفان بهيئة جمعية اهلية وقرروا وجوب اطاعة أوامر هذا القائد وكان يريد نشر الاحكام العرفية ومعاقبة الرجعيين وتقلمل حرس

القسطنطينية وكان قد انضم غالبه الى اعداء الدستور . فلما احيب الى ما طلب دخل العاصمة في الخامس والعشرين من ابريل واشتبكت جنوده خمس ساعات بجنود ا صار الاستبداد القديم اولئك الذين كانوا اولا أحراراً ارسلتهم الجمعية من سلانيك للحلول محل حرس السلطان الاقدمين من الالبانيين فما عتموا ان صاروا رجعيين بتأثير عبد الحميد واعوانه . وبعد ان تبودل اطلاق المدافع والبنادق بين رجال الوطن الواحد الذين فرقتهم الاهواء شيعاً ومزقتهم الاعراض فرقاً نصبت المشانق علناً لاعدام



السلطان محمد الخامس

المحرضين ثم اجتمع اعضاء مجلس الاعيان والمبعوثان واغلقت دونهم الابواب في السابع والعشرين من ابريل وقرأت عليهم الفتوى بخلع عبد الحميد بعد ذكر سائر سيئاته واعماله مما لا ينطبق على نصوص الشرع الشريف فاصدروا قراراً بالاجماع باقالته وتنصيب اخيه محمد رشاد باسم محمد الخامس . وكذلك سقط الداهية الذي ادهش ساسة أوربا ولعب بعقولهم مدة طويلة مع كونه أمعن في ظلم البلاد والعباد وتمادى في ركوب متن التجبر والاستبداد وقد نقلوه من سراي يلدز الى سالونيك ثم نقل منها بعد مدة الى القسطنطينية بعد أن صودرت ذخائره وكنوزه مما قدر بمليون من الجنيهات

الفصل السادس

المسئلة الشرقية واستقلال العناصر

السلطان محمد الخامس — استيلاء النمسا على البوسنه والهرسك — اعلان استقلال بلغاريا — سياسة العناصر — الالبانيون قديماً وحديثاً — مطامع ايطاليا في طرابلس — حرب ايطاليا وتركيا — نقد معاهدة برلين — الحرب البلقانية واسبابها — بلاغ الكونت برختولد — بلاغ البلقانيين النهائي — سير الحرب وانتصار البلقانيين — رأي انكلترة بعد الانتصار — الهدنة — الحرب ثانية — حصن دفاع أدرنه ويانيا — الزحف على شاطلجة وتهديد الاستانة — شروط الصلح — الحرب بين البلقانيين واسترجاع أدرنه

كان السلطان محمد الخامس طوع اشارة جمعية الاتحاد والترقي ولا عجب فقد كان قليل التجربة غير بصير بامور السياسة وتصريف الامور . جعله اخوه السلطان عبد الحميد رهين قصر لا يبرحه وقد قضى عشرين عاماً من غير أن يطلع على جريدة ! ! واستفتح عهده بثورة الالبانان الذين أبوا دفع الاموال الاميرية كما ان دعياً من دعاة المهدوية ظهر في أصقاع اليمن . وفي مستهل سنة ١٩٠٩ أمضي الاتفاق التركي النمسوي وبه اعترف الباب العالي باستلحاق النمسا لاقليمي البوسنه والهرسك في مقابل تسلمه سنجق نوفي بازار الذي اخلته الجنود النمسوية واخذ ٢٥٠٠٠٠٠ ليرة وقد غاظ الصرب والجبل الاسود ضم البوسنه والهرسك الى النمسا لان غالبية سكانهما من العنصر السلافي الذي كان لها المطمح في ضم شتاته اليهما . ولم تستطع اوربا مناصرتهما خصوصاً وقد كانت المانيا تؤازر النمسا وانكلترة لا تستطيع مساعدة الصرب باسطولها خوفاً من المانيا ولان الصرب دولة لا ساحل لها والروسيا أضعف من أن تنصر البلقانيين على النمسويين لخروجها من حرب اليابان خائرة القوى

ولما أعلن فرديننـد ملك بلغاريا انه مستقل عن تركيا استقلالاً تاماً احتجت تركيا وغضبت فترضتها بلغاريا بـ ٣٢٨٠٠٠٠ ليرة ثابت واصرت على عوض لا تقل قيمته عن ٥٠٠٠٠٠٠ فتداخلت روسيا في الامر واقترحت حلاً فيه رضاء الفريقين وقد كان لروسيا عند تركيا ٧٤ قسطاً سنوياً من أقساط غرامة الحرب الاخيرة التي نشبت بينهما فتنازلت روسيا عن ٤٠ قسطاً يعادل مقدارها الفرق بين العوض الذي تطلبه تركيا من بلغاريا والعوض الذي اقترحت بلغاريا دفعه واقترحت روسيا أن تدفع

لها بلغاريا ال ٣٢٨٠٠٠٠ المزمعة الدفع لتركيا في نظير بقية الاقساط المستحقة لروسيا على تركيا ويكون دفع بلغاريا اقساطاً سنوية لا يزيد كل قسط عن ٢٠٠٠٠٠ ليرة . وقد سقنا هذه العبارة للقارىء ليستدل منها على مبلغ شغف روسيا بمساعدة البلقانيين واضعاف تركيا تقريباً لاجل حل المسئلة الشرقية

وفي بدء حكم السلطان محمد الخامس ألحَّ الكريتيون في الاستقلال عن الدولة العثمانية استقلالاً تاماً نهائياً وقالوا انهم تابعون لليونان وارسلوا نواباً عنهم في مجلس النواب اليوناني وبعد اعتراض تركيا ومفاوضات طويلة بين الدول الحامية للجزيرة ارغم الكريتيون على الاعتراف بسيادة السلطان وتأجل اتصالهم بدولة اليونان الى حين

واساء الاتحاديون سياسة العناصر الغير التركية وخالف القول العمل فاندلعت نيران الثورات في كل مكان خصوصاً في البانيا التي رام أهلوها الاستقلال والانفصال عن تركيا بعد ما علموا ان قهرهم على دفع الاموال الاميرية لا يفيد تحسين أحوالهم فائدة تذكر

والبانيا بلاد يسكنها مليون ومائة واربعون الفاً منهم ثماني مائة الف من المسلمين ومائتان واربعون الفاً من الارثوذكس ومائة الف من الكاثوليك

والالبانيون يختلفون عن سائر العناصر البلقانية بلغتهم واخلاقهم وعاداتهم التي حفظوها على توالي الايام فالالباني او ابن النسر يعبد الشرف ويهوى الحرية ولا يقيم على الضيم فاقل اهانة تلحق به يعقبها انتقام دموي هائل

ولم يشد الالبانيون دولة في زمن من الازمان ولكنهم شوهدوا في جميع الحروب والغزوات فاجتاحوا الشرق مع اسكندر المقدوني وحاربوا الرومانيين مع بيروس وقاتلوا الصقالبة بعد وصولهم الى البلقان واشتركوا مع السلطان مراد في معركة قوصوه ثم انقلبوا على الترك في زمن اسكندر بك الزعيم الالباني الشهير وحاربوهم دفاعاً عن حريتهم واستقلالهم

وقد رأى السلاطين العثمانيون أن يحسنوا معاملة الالبانيين ويستميلوهم اليهم بالحكمة واللين فاعفوهم من الضرائب والاموال الاميرية وعينوا منهم الصدور العظام واجتنبوا الدخول في شؤونهم الداخلية فتطوع الالبانيون في الجيش العثماني عن طيبة خاطر واعتنق معظمهم الاسلام

وقد ظهرت الفكرة القومية في البانيا في أوائل هـذا القرن وأخذت تنتشر يوماً فيوماً الى أن بلغت حـدها الاقصى أثر اعلان الدستور العثماني فاجتمع بعض زعماء الالبانيين وطلبوا من الحكومة العثمانية أن تجعل اللغة الالبانيـة اللغة الرسمية في بلادهم ثم عقدوا اجتماعاً آخر في مناستير طلبوا فيه أن تنشأ مدارس جديدة في البانيا وأن تكتب اللغة الالبانية بحروف لاتينية . فارتعدت فرائص الترك من جراء ذلك لانهم أدركوا أن البانيا حصنهم الوحيد في اوربا وأن ابتعادها عنهم يقضي عليهم بالرحيل الى اسيا فرغبوا في القضاء على الفكرة القومية فيها وعهدوا الى بدري باشا والي اشقودره في ذلك الحين في اتخاذ التدابير اللازمة لذلك (سنة ١٩١٠) فاسرع بدري باشا الى تنفيذ أوامر الاستانة ومنع الالبانيين من حمل السلاح في المدن فعدوا ذلك اهانة لهم واعربوا عن استيائهم من سياسة الحكومة العثمانية ثم عقب ذلك شنق بعض زعماء الالبانيين في الاستانة أثر خلع السلطان عبد الحميد واقرار الحكومة على أحصاء سكان البانيا توطئة لتجنيدهم وفرض الضرائب عليهم فشقوا عصا الطاعة وجاهروا بالعصيان فجاءهم شوكت طورغود باشا بجيش كبير وقمع ثورتهم بشدة لم يسبق لها مثيل وأصدر أمره بجمع السلاح منهم ولـكن السلاح الذي جمعه كان قديماً وظل السلاح الجديد بين الالبانيين فغنموا أول فرصة سنحت لهم وأعلنوا الثورة هـذه المرة باسم القومية وطلبوا الاستقلال الاداري التام وتدريس اللغة الالبانية وحدها في مدارسهم بعد ما تكتب بالحروف اللاتينية وانفاق الاموال الاميرية كلها على اصلاح بلادهم

وقد انتشرت الفكرة القوميـة بسرعة عظيمة في البانيا فتعدت المفكرين الى جميع طبقات الشعب وحلمت الشبيبة وبعض الزعماء باستقلال البانيا التام وجعلها واسطة لابرام اتفاق بلقاني متين ومحوراً تدور عليه سياسة البلقان المقبلة

وأما الترك فرفضوا اجابة الالبانيين الى مطالبهم وجردوا عليهم حملة كبيرة ولـكنها لم تستطع الثبات أمامهم فاكرهت على التقهقر الى ما وراء اشقودره. ولما أرسلت الحكومة طورغود باشا لشد أزر هذه الحملة على الالبانيين الذين في الشمال ثار المردة الذين في الجنوب من اشقودره بشرق واشترك المسلمون والمسيحيون في الحرب فادركت الحكومة حرج موقفها ونهجت خطة المسالمة واللين في البانيا فاصدر خليل بك وزير الداخلية العثمانية في ذلك الحين أمراً بفتح المدارس الالبانية وزار السلطان

محمد رشاد سهل قوصوه في ١٦ يونيو سنة ١٩١١ وأصدر عفواً عاماً عن الذين اشتركوا في العصيان وفي ٢١ منه دعا طورغود باشا زعماء الماليسوريين الى اجتماع في توزا فرفضوا ذلك لعدم ثقتهم به ودارت رحى القتال ثانية في ٢٤ يونيو ولكن الماليسوريين الذين رفضوا مفاوضة طورغود باشا لشدة كرههم له كانوا يفاوضون في تلك الاثناء صدر الدين بك معتمد تركيا في شتينه فوعدهم بفتح المدارس المقفلة واصلاح الطرق وادارة بلادهم على اساس اللامركزية مقابل أخلادهم الى السكينة

على أن الترك لم يعنوا بوعودهم هذه المرة أيضاً لانهم كانوا يخشون أن تقتفي العناصر العثمانية أثر الالبانيين في طلب اللامركزية الواسعة فتفاقم الخطب وتكلم سفراء الدول في المسئلة

ولم تكن النمسا لتغض الطرف عن البانيا لانها الطريق التي تؤدي الى البحر والحصن الذي يتوقف عليه صد اطماع الصقالبة ومنع تقدمهم فنشأ عن ذلك تفاقم الخلاف بينها وبين الصقالبة من جهة وبينها وبين ايطاليا من جهة أخرى لان ايطاليا تعد نفسها وارثة الرومانيين ويهمها بحر الادرياتيك دفاعاً عن شواطىء بلادها

وفي شهر مايو سنة ١٩١١ تعكر صفو الصلات بين تركيا والجبل الاسود بسبب التجاء الثائرين الالبان اليه وقررت حكومة تركيا الحرب على حكومة الجبل لولا ظهور روسيا بمظهر المدافع عنه ثم اجازت تركيا لاهل البانيا استقلالياً داخلياً واسع النطاق

ولم تكد تركيا تفرغ من مشاكل الثورة الالبانية حتى ساقت اليها الاقدار مصائب حرب خارجية . وذلك انه كان للايطاليين في طرابلس مطمح من زمان طويل وكانوا يرمونها بانظارهم منذ استحوذ الفرنسيون على تونس وغلبوا الايطاليين على ملكيتها. قالت ايطاليا ان فرنسا أخذت تونس واما آخذ طرابلس وهي نصيبي من املاك تركيا الافريقية وقد زعم الايطاليون أن الاتراك اتاهوا العقبات امام الايطاليين ولم يرحبوا بهم « في طرابلس حيث رحبوا بغيرهم وانكروا عليهم ما أجابوا سواهم اليه » على أن وزير خارجية ايطاليا كان لغاية ٩ يونيو سنة ١٩١١ يزعم أن سياسة أيطاليا موجهة نحو المحافظة على بقاء الاحوال على ما هي عليه في أمور الدول وانها تؤيد المحافظة على سلامة تركيا واملاكها في أفريقية وغيرها من الجهات . وبعد هذا التصريح بمدة أي في أوائل يوليو زار ولي عهد تركيا مدينة رومية وقوبل فيها بترحاب عظيم

وفضلاً عن ذلك فقد حافظت ايطاليا على ولائها للباب العالي أثناء فتنة البانيا وشددت في منع تهريب السلاح والذخيرة الى الثائرين ولذلك فوجيء العالم ودهش من بلاغ ايطاليا النهائي للحكومة العثمانية المحرر في ٢٦ سبتمبر والذي فيه من أسباب الحرب «حالة الفوضى والاضطراب الضاربة اطنابها في طرابلس وبرقه ومعارضة كل مشروع ايطالي واثارة الفتنة والفوضى على نزلاء الايطاليين » تلك الاسباب التي انكرها كل عاقل منصف في العالم ولم يجد لهـا أشد الناس مقتاً للدولة العثمانية مبرراً .

وكان ملك ايطاليا ورئيس وزرائهـا السنيور جيولتي على ما يقال لا يريدان حربا ولكن الحزب الوطني الايطالي والعنصر الصقلي في الوزارة والرأي العام ومصرفاً من المصارف التي كان لهـا العلاقات العظيمة بطرابلس والرغبة في مغالبة الضعيف على ما بيده كل ذلك حمل الحكومة على شهر الحرب وانتهت الحرب في ليبيا ـ وهي التسمية الايطالية لاقليمي برقه وطرابلس ـ بخروج آخر أقليم افريقي تركي من أحضان حكومة الباب العالي وأصدر ملك ايطاليـا في ٥ نوفمبر سنة ١٩١١ أمراً عالياً بانضمام طرابلس وبرقة الى حكومة ايطاليـا .

على ان الحرب الايطالية الطرابلسية اثرت في أحوال جزائر بحر الارخبيل وكانت حكومة ايطاليا في مفتتح الحرب قد أرسلت الى معتمديها في عواصم البلقان تقول انها مع حربها مع الدولة العثمانية تؤيد بقاء الاحوال في البلقان على ما هي عليه وأنهـا لاتعضد أي حركة يقصد بها الخروج على سيادة تركيا في البلقان. ولما ضرب الاسطول الايطالي ثغري بريفيزا وسان جوابي دي مادوه بمدافعه اعترضت النمسا على ايطاليا وذكرتها باحترام قرارها السابق أي بقاء حال البلقان على ما كان . ولما انبرى حماة برقة وليوث طرابلس وصناديد العرب لحرب ايطاليا وقاموا في وجهها سـداً وأصلوها ناراً حامية واذاقوها ويلاً ونكالاً وبطأت أعمالها ولم تتقدم الى أبعد من مرمى قذائف اسطولها ضاقت بالحرب ذرعاً وأرادت مضايقة الدولة العثمانية في جهات اخرى فاغرق اسطولها بعض سفن تركية في مياه بيروت وضربت ثكنات الجنود في جزيرة ساموس وفي مدخل الدردنيل بالمدافع . ثم اقتحمت مدخل الدردنيل بخمس من سفن الطوربيد . وفي ابريل ومايو من سنة ١٩١٢ احتلت جزيرتي رودس وكوس وعشر جزائر أخرى صغيرة . فلما رأى سكان الجزائر منها ذلك أرسلوا عنهم مندوبين في مؤتمر عقـد في باتموس في ١٧ يونيو وقرروا رغبتهم في الانضمام الى

حكومة اليونان في المستقبل وانهم يقيمون لجزائر بحر الارخبيل التابعة لتركيا والتي احتلتها ايطاليا حكومة مؤقتة ذات علم خاص . فلما علمت ايطاليا بقرارهم أنكرته عليهم فولدت المشكلة الطرابلسية مشكلة أخرى تدعى مشكلة الجزائر . وفي ١٨ اكتوبر عقدت معاهدة الصلح في لوزان بين تركيا وايطاليا التي قررت اخلاء الجزر والعفو عن مسلك أهلها بعد جلاء العثمانين عن برقه وطرابلس

ولا يشبه اعتداء الايطاليين على طرابلس الا اعتداء الفرنسيين على الجزائر اذ انتهزوا فرصة ضعف الدولة واضطراب حال الجزائر فهاجموها بحجة الانتقام من واليها لاهانة ألحقها بالقنصل الفرنساوي وما زالت الحرب ناشبة بين الفرنسيين والجزائريين بقيادة البطل الشهير الخالد الذكر السيد عبد القادر الجزائري حتى سنة ١٨٤٧ حيث بسطت عليها جناح سلطتها الى اليوم . والا اعتداء الفرنسيين ايضاً على تونس سنة ١٨٨١ اذ زعموا ان قبائل منها تغير على حدود الجزائر فجردوا جيشاً أمعنوا به في داخلها وارغموا سمو الباي على قبول الحماية التي بسطوها عليها والتي صارت بها تونس أسوأ حالاً من مستعمرة فرنسية تابعة رأساً لحكومة باريس. فانت ترى ان امتلاك فرنسا للجزائر واعتداءها على تونس ثم هجوم ايطاليا على طرابلس لا سبب له الا العدوان الصريح والشراهة الاستعمارية والعمل على اقتسام ميراث « الرجل العليل » أي تركيا بزعمهم . فالسياسة لا قلب لها ومبادىء الشرف والعفة لا ذكر لها في دستور الامم الاستعمارية والحق عندهم للقوة والضعيف لقمة سائغة وطعمة تزدرد وما بقاؤه حياً الا لاختلافهم على ميراثه وتشاحنهم على اقتسام أسلابه . ولنعد الى ذكر السبب الذي دعا العثمانيين الى الاسراع في مصالحة الايطاليين وامضاء شروط صلح لوزان في حين كانت كفتهم الراجحة ولم يفز الايطاليون بأكثر من ساحل طرابلس مع احتلال بعض جزائر بحر الارخبيل فنقول :

كانت المعاهدات التي تقدمت معاهدة برلين تقضي باحترام السيادة العثمانية . أما معاهدة برلين فانها وضعت السلطنة العثمانية تحت وصاية اوربا وأجازت تصدي الدول العظمى للشؤون العثمانية ثم قررت منح البلغار استقلالاً ادارياً كاملا وأوجبت على الحكومة العثمانية أن تعترف باستقلال الجبل الاسود . ومعاهدة برلين وان كانت قد منعت روسيا من انشاء دولة بلغارية واسعة النطاق فانها تركت مواضع كثيرة لتدخل السياسي ودواعي جمة للطامع ونامت الدول الواضعة لتلك المعاهدة عن اعمال اصيانتها

فنشأ عن هذا كله ان الامارة البلغارية ضمت اليها الروملي الشرقية سنة ١٨٨٥ ثم أعلنت استقلالها وارتقاءها من امارة الى مملكة سنة ١٩٠٨ فهتكت حرمة تلك المعاهدة مرتين ثم ضمت النمسا البوسنه والهرسك الى أملاكها من جهة أخرى فهتكت حرمتها أيضاً

وما زالت دول البلقان منذ سنة ١٨٧٨ تطلب زيادة على ما ربحت من تلك المعاهدة وقام الخلاف بينها على الاراضي العثمانيـة المطموع فيها وصارت كل دولة تنازع الاخرى أشـد المنازعة حتى اصطبغت هضاب مقدونيا بدماء البلغاريين والصربيين واليونانيين والرومانيين . قال المسيو شوبليه في تاريخه للمسألة الشرقية بعد مؤتمر برلين « ان هذا المؤتمر زاد ضعف تركيا واشتياق رعاياها الى الاستقلال كما زاد قوة أعدائها في البلقان » وكل من يتنزه عن الغرض يحكم اذاً بان شطراً من تبعة الفوضى التي فشت في البلقان يلقى على تركيا لانها أغفلت الاصلاح فوسعت أبواب الشكوى وأقامت لخصومها الحجة عليها وبان الشطر الثاني هو نصيب الدول العظمى التي وضعت معاهدة برلين ونصيب الدول البلقانية التي ملأت البلقان من الدسائس والسعايات والمنازعات بلوغاً الى اغراضها وتحقيقاً لاطماعها

وكانت تلك السعايات والمنازعات من شأنها أن تجعل الاصلاح مستحيلاً أو صعباً جداً . ثم أخذت العصابات المختلفة تسلم سلاحها الى ولاة الامور ابتهاجاً بالدستور العثماني فلما كان ما كان من أمر هذا الدستور وشبت الحرب بين ايطاليا والدولة العلية وثبت لساسة الدول البلقانية ما قام في الاستانة من الخلل الذي هو أبو المفاسد عادت الفوضى ثم تناست الدول البلقانيـة عداواتها ودفنت مشاحناتها لتتحالف على « العدو العام »

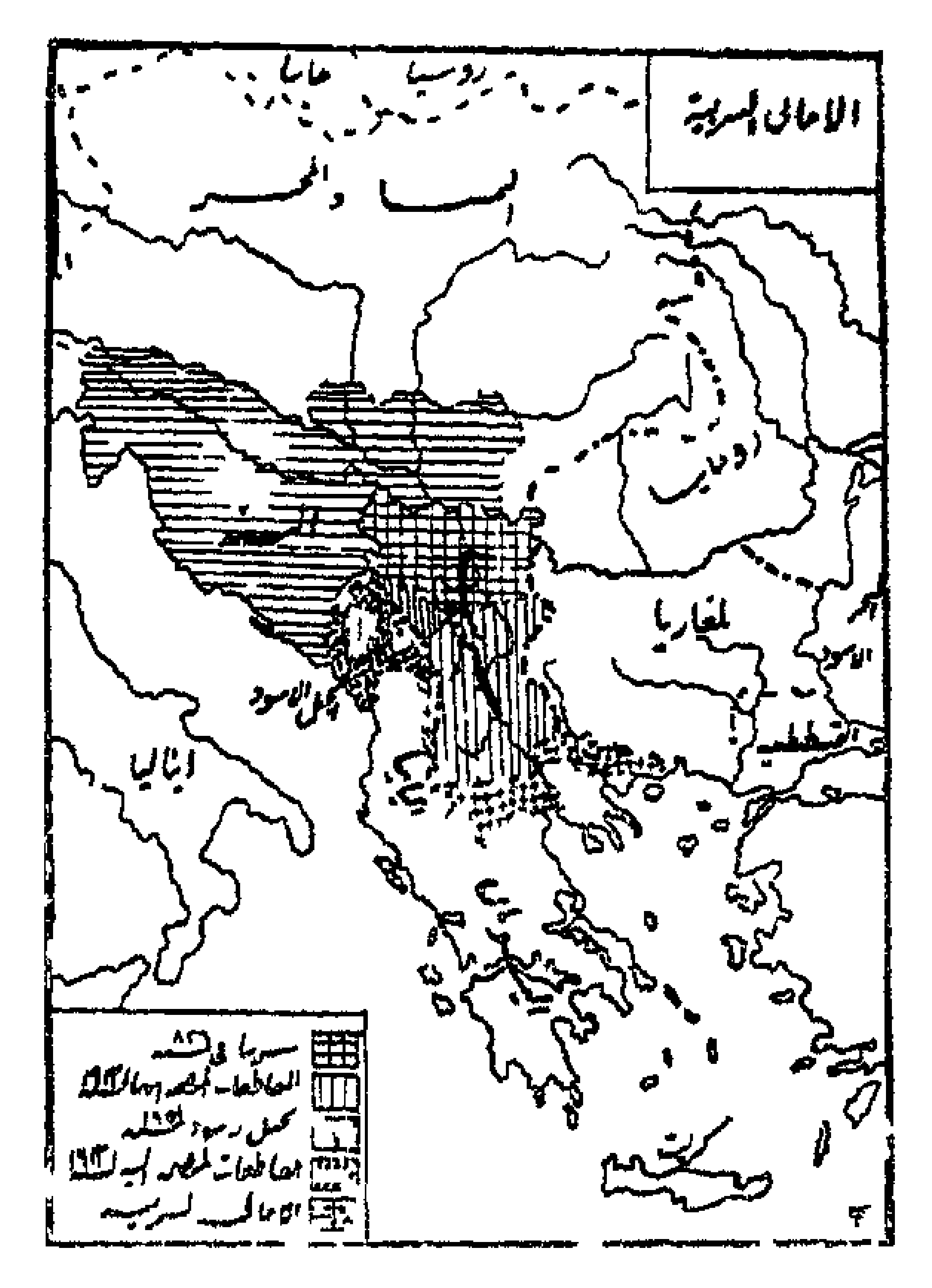
واسباب الحرب (اولا) ما انطوت عليه الصدور وانحنت فوقه الضلوع من الحقد القديم والضغينة الازلية بين الاتراك والامم البلقانية المتحالفة (ثانياً) طمع كل دولة من الدول البلقانية المتحالفة باسترجاع مجدها القديم وبسطة ملكهـا الغابر (ثالثاً) ثقة الدول البلقانية المتحالفة بمساعدة روسيا التي يهمها اضعاف الدولة العثمانية وتلاشيها حتى يتم لها احتلال الاستانة بنفسها أو على الاقل بواسطة دولة من الدول البلقانية (رابعاً) استمرار ضعف الدولة والفوضى حتى بعد اعادة العمل بالدستور

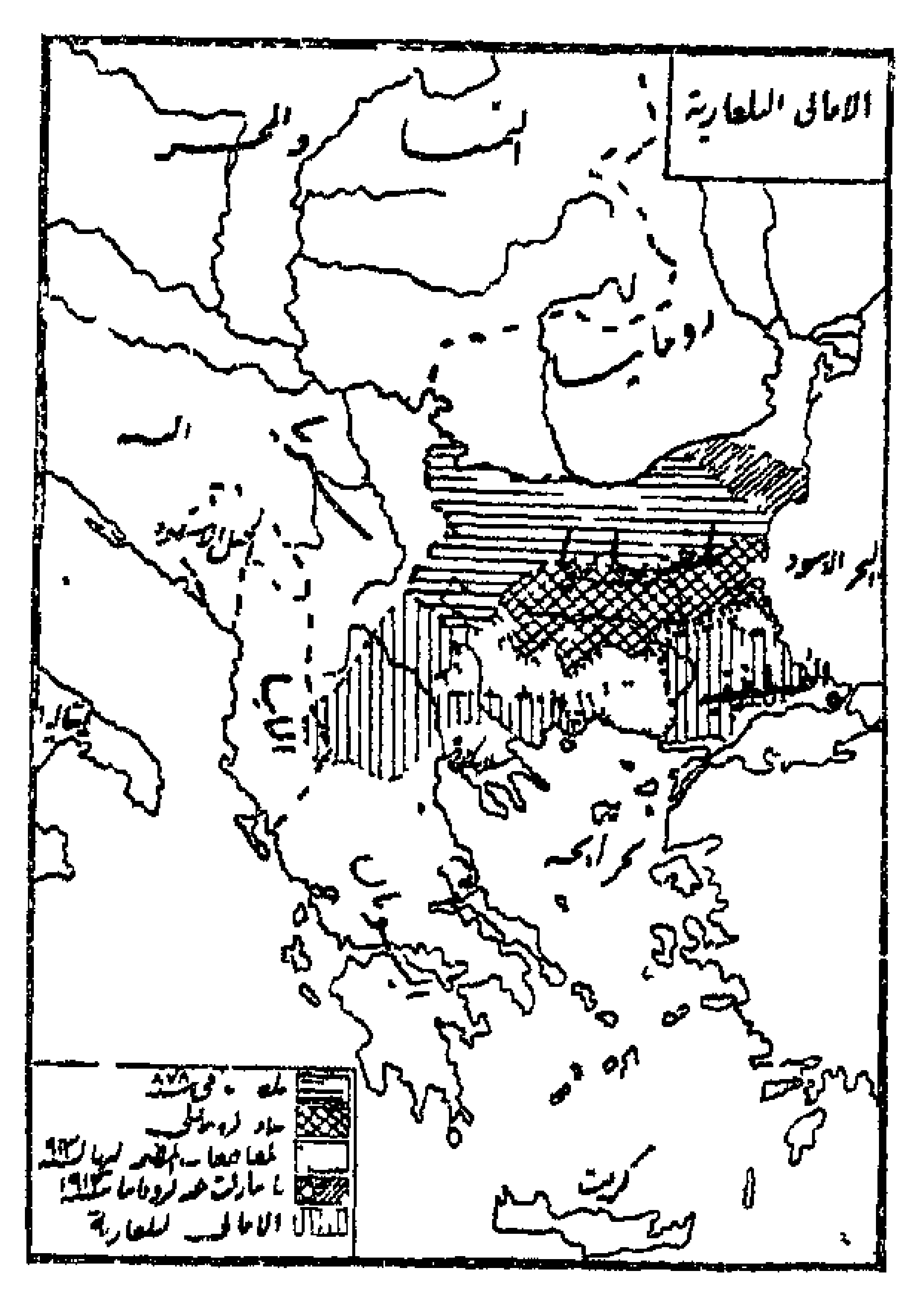
كانت الحرب البلقانية مقدمات ونذر فقد اعتدى الجبليون على الاراضي التركية

فغادر المعتمد التركي شتينه عاصمة الجبل وقامت المذابح في برانه وكوشانا على ساق وقدم كما أن ذبح بعض البلغاريين في أشتيب الهب البلغاريين في بلغاريا غيظاً وحنقاً وطالبوا حكومتهم باعلان الحرب وكان منح البانيا الاستقلال الاداري مقوضاً لدعائم اطماع دول البلقان الاربع في البانيا وقد زعمت صربيا أن تركيا سلبتها بعض ذخائر حربية وزعم اليونان ان الترك اعتدوا على سفينة في مياه ساموس كما أن بلغاريا فضلاً عن شكواها من المذابح رأت في حركات الجنود التركية في تراقيا تهديداً لها. وقد أرسل الكونت برختولد مذكرة الى الدول العظمى يشير عليها فيها بنصح تركيا بمنح ولاياتها نظام الحكم اللامركزي وبنصح الدول البلقانية بالاعتدال والصبر. على أن سعي برختولد كان على غير جدوى وكان لا يرضي دول البلقان غير تحكيم السيف والمدفع

وليس من المعروف الى الآن سر تأليف الاتحاد البلقاني ولا من سعى فيه والراجح أنه داهية اليونان فنزيلوس الكريتي. ومما يعد من قبيل حسن الطالع للبلقانيين وسوء الحظ للعثمانيين ان ولاة الامور في دول البلقان كانوا اذ ذاك من الدهاة الحاذقين الاذكياء وقد تمت المفاوضات وأبرمت المحالفة وهي سر من الاسرار المكتومة عن الترك والاوربيين أيضاً وعبأت الدول البلقانية جيوشها في حين كانت تطالب بتطبيق مادة ٢٣ من عهدة برلين فاجابت تركيا أنها عازمة عزماً أكيداً على تنفيذ قانون ١٨٨٠ الخاص باصلاح الولايات. فهزت الدول البلقانية كتفها احتقاراً ونصحتها النمسا وروسيا بالاعتدال وهددتاهن ببقاء الخريطة على ما هي حتى بعد نهاية الحرب في صالحهن فلم ترعو ولم تسمع لانها كانت لا تريد غير الحرب كما قدمنا. ففي ٨ اكتوبر أعلن الجبل الاسود الحرب وأطلق الامير نقولا أول رصاصة في الحرب البلقانية. وتوالى سقوط البلاد في أيدي الجبليين وتقدمت جيوشهم في سنجق نوفي بازار واستولت على جملة مدن فيه ـ كل ذلك ولم تكن بقية دول التحالف قد عاضدت الجبليين بعد. وفي ١٣ اكتوبر أرسلت بلغاريا وصربيا واليونان الى النمسا وروسيا وتركيا خطابات تكاد تكون ذات معنى واحد وفيها طلب الاستقلال الداخلي التام للولايات التركية الاوربية وان تكون الحدود بين تلك الولايات وفق الجنسيات القاطنة بها وان تكون حكام الولايات من السويسريين أو البلجيكيين وان تكون للولايات مجالس نيابية وان تنظم الجندرمة ويكون التعليم حراً ولكل اقليم جنود خاصة

به (مليشيا) وان يكون الاصلاح بارشاد لجان مؤلفة من مسلمين ونصارى على التساوي والاشراف الاعلى ليس فقط لسفراء الدول العظمى بل لمندوبي دول البلقان في الاستانة هذا فضلاً عن وجوب تسريح الجيش العثماني ! فلم يسع الحكومة التركية الا رفض هذه المطالب طبعاً واستدعت معتمديها من بلغراد وصوفيا واعلنت الحرب على صربيا وبلغاريا في ١٧ اكتوبر . وفي اليوم التالي اعلنت اليونان الحرب على تركيا وكان فنزيلوس قد قبل في مجلس النواب اليوناني نواباً عن كريت قبل ذلك باربعة ايام وابتدأت الحرب البلقانية فعلاً وكان كثير من الناس يصغر شأن الدول البلقانية





خريطة الاماني الصربية

خريطة الاماني البلغارية

ويشفق عليهن من انتقام الجيش العثماني الباسل . على ان اياماً قليلة مضت وظهر ان البلقانيين كانوا على استعداد عظيم وان الاتراك العثمانيين قد خدعوا انفسهم وخدعوا العالم وغموا الاصدقاء وأشمتوا الاعداء فقد سارت الجيوش البلقانية وفي ركابها النصر وتقدمت يحدوها الظفر في كل مكان وتداعت القوة العثمانية في اوربا كما يتداعى بيت اقيم من الورق او قصر بني على الرمال . وكان احسن ما افاد البلقانيين نظام مستتب دقيق ووطنية حارة وثابة وسرعان ما استولى البلغاريون على مصطفى باشا كما انهم استولوا على كرك كليسا في ٢٤ اكتوبر ذلك المكان الذي زعم معلم الجيش التركي فون دون ولتز الالماني انه يمتنع على اقوى جيش بروسي ثلاثة اشهر كاملة . اما اليونان

فاحتلوا جملة مدن في مقدونيا الجنوبية وايبروس واحتل الاسطول اليوناني جملة جزائر - فضلاً عن جزيرتي ايكاريا وساموس اللتين رفعتا العلم اليوناني منذ الحرب الطرابلسية - كما انه (أي الاسطول) رفع علم اليونان على شبه جزيرة جبل أثوس المقدس ومنع الاسطول التركي من مبارحة الدردنيل والنقالات العثمانية من اجتياز بحر الارخبيل وأرسلت كريت امداداً كثيرة . أما الصربيون فقد أمعنوا في بلاد صربيا القديمة واعترضهم الالبانيون الذين استعمروها منذ معهدة برلين وقاتلوهم عليها قتالا شديداً ثم انتهى الامر بانتصار الصربيين في موقعة كومونوفو الفاصلة وسلمت لهم البلد تلو الاخرى مما له ذكر وأهمية في التاريخ الصربي القديم . وفي ٢٦ اكتوبر تحقق حلم الصربيين ونالوا مناهم بدخول ولي عهد ملكهم مدينة أسكوب حيث توج ملكهم اسطفان دوشان سنة ١٣٤٦ امبراطوراً عظيماً وتم انتصار الصربيين باخذ برشتينا وبرزرن ثم بسقوط مناستر . وكان البلغاريون في غضون ذلك وفي ميدان لولوبرغاس من أعمال تراقيه يحاربون جيشاً تركياً آخر خائراً جائعاً مكسور الخاطر قاتلوه خمسة أيام بلياليها ثم تعقبوه الى خطوط شاطلجة . وفي ٨ نوفمبر سلمت سلانيك لولي عهد اليونان بعد أن ظلت في قبضة الترك ٤٨٢ عاماً

هنا لا بد من وقفة يرثي فيها القلم دولة السيف . دولة تدول وعز يزول . اين انتم يا غطارفة الاناضول وليوث آل عثمان وأبطال الترك الاشاوس ؟ ماذا دهاكم ؟ ماذا أصابكم ؟ أكذا تكون مصارع الدول ؟ أتدمي البعوضة مقلة الاسد ، وتقتحم الجرذ العرين ؟ بالامس صال الاسم العثماني وطاول السما كين أيام كان سليمان لا يكاد يسمع باقليم حتى تشتهيه نفسه ولا تكاد تشتهيه نفسه حتى تجتاحه أفراسه والسعد خادم والدهر يرتجف وأوروبا بجذافيرها من رهبة الملك العظيم في هلع . واليوم البلغاريون على حدود شاطلجة ! يا للعار يا أعقاب عثمان ونسل بايزيد وأولاد محمد الفاتح وأخلاف سليمان اتسع الملك عليكم فلم تحسنوا سياسته فطمع فيكم من كانوا بالامس من جملة مواليكم

وكذلك تم في بضعة أسابيع انتقاص تركية أوروبا من كل جانب ولم يبق منها غير مدينة أدرنه واشقودره ويانيا وهي مدن فاومت البلغاريين والجبليين واليونانيين وغير لسان غاليبولي وشبه الجزيرة الممتد من خطوط شاطلجة الى زقاق البوسفور وقد رأت دول أوروبا تلقاء انتصار البلقانيين الباهر أن تعدل عن قرارها السابق أي المحافظة

على خريطة البلقان ــ ولا غرابة فاوربا تكره الاتراك

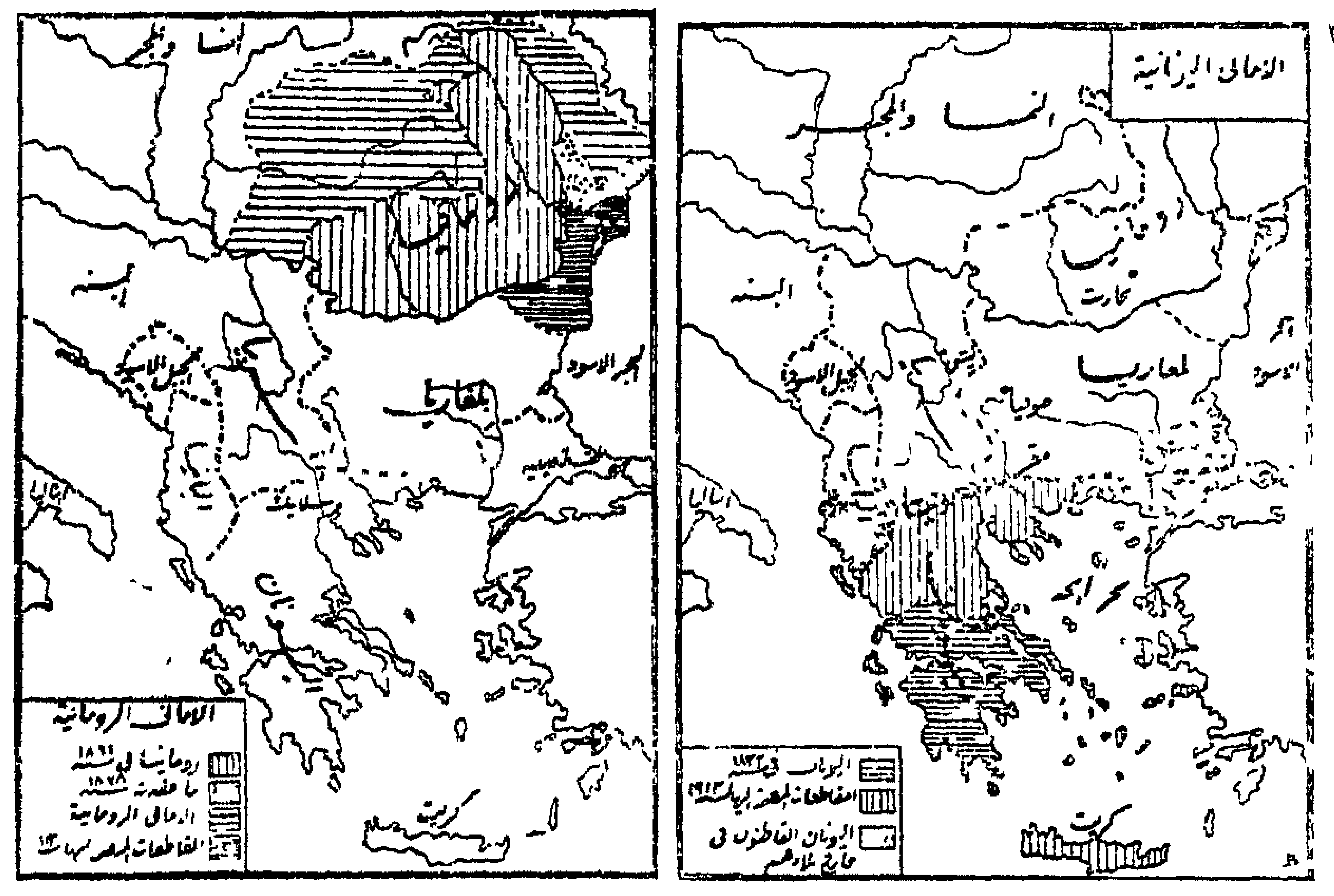
قال المستر اسكويث رئيس الوزارة الانكليزية من خطبة له في ٩ نوفمبر : لا بد من تعديل خريطة أوربا الشرقية اذ لا يمكن أن نحرم المنصورين من ثمرة انتصارهم ذلك الانتصار الذي كلفهم ثمناً باهظاً . ولما رأت النمسا أن استيلاء الصربيين والجبليين على سنجق نوفي بازار قد حال دون وصولها الى بحر ادريانيك منعت صربيا من اتخاذ مرفأ لها على ذلك البحر وجعلت من نفسها بمعاضدة ايطاليا نصيراً لانشاء البانيا المستقلة التي نادى بها اسماعيل كمال بك في فالونا واعترف بذلك سفراء الدول العظمى في لندن

ثم دخل الصربيون دورازو وانتصر البلغاريون في ديموتيكا وفي ٣ ديسمبر امضي عقد هدنة في شاطلجة بين تركيا والدول البلقانية السلافية. فاما اليونان فواصلت أعمالها العدائية . على ان مندوبي الدول المتحاربة الخمس اجتمعوا في ١٦ ديسمبر في قصر سانت جيمس كما أن السير ادورد غراي تصدر مجلساً في الوقت نفسه يضم سفراء الدول العظمى

ونصحت الدول العظمى للباب العالي بالتنازل عن أدرنه للبلقانيين وترك مسئلة جزر البحر لعناية الدول العظمى . وفيما كان المجلس الاستشاري الاكبر منعقداً في الاستانة وعلى وشك قبول رأي الدول العظمى ظهرت ثورة بزعامة انور بطل الدستور وحرب طرابلس فارغم كامل باشا على الاستعفاء وقتل ناظم باشا القائدالعام علناً وفي رابعة النهار ومجلس الوكلاء منعقد وعادت السلطة الى جمعية الاتحاد والترقي . وبعد قليل أي في التاسع والعشرين من يناير غادر مندوبو دول البلقان مدينة لندرة واعلنوا انتهاء الهدنة وعودة الاعمال الحربية . على أن الهدنة انتهت فعلاً في ٣ فبراير وعادت الحرب باهوالها وفظائعها وكان اليونان في غضون ذلك قد تمكنوا باسطولهم من قهر الاسطول التركي خارج الدردنيل واستولوا على مدينة يانينا تلك التي أسفوا على تركها الاتراك منذ ٩٤ سنة اسفاً عظيماً وعاد البلغاريون الى القتال حول أدرنه وفي شاطلجة وشبه جزيرة غاليبولي وعاد الصربيون والجبليون الى مهاجمة اشقودره وزادت خسائر الفريقين المتحاربين وحاول أنور بك أن ينزل بقوة عظيمة وراء البلغاريين فاخفق سعياً وخسر كثيراً ثم سقطت أدرنة في ٢٦ مارس بعد دفاع طويل باسل مجيد وبعد أن كتب حماتها الابطال صحيفة مجد خالد من صحف تاريخ الجندية العثمانية صحيفة تشهد

لقائدهم شكري باشا الهمام بانه من طراز أولئك الابطال الاشاوس الذين اكتسبوا ببسالتهم وحذقهم ثقة امتهم واحترام العالم اجمع . وكانت الجيوش اليونانية قد شددت (بقيادة ولي العهد وهو الملك قسطنطين الحالي) الحصار على يانيا وألحت عليها بالمدافع تحت تأثير برد قارس وجليد متساقط . وفي ٥ مارس سلمت حاميتها الباسلة بقيادة وهيب بك بعد دفاع باسل مجيد

ولما رأت الدول ان يانيا وادرنه قد صارتا الى البلقانيين وان الجيوش المرابطة حولها قد تستخدم في الاستيلاء على الآستانة وان البلغاريين قد يجدون في فتحها



خريطة الاماني اليونانية　　خريطة الاماني الرومانية

فتقوم المشاكل العظيمة بسبب الاختلاف على امتلاك تلك العاصمة الثمينة نصحت للمتحاربين بتوقيف الاعمال الحربية وافهمت البلغاريين ان كل دم يراق يكون بعد ذلك عبثاً وانها لا تسمح باقتراب احد من مدينة البوسفور وجعل خط التحديد بين الاملاك البلغارية والاملاك العثمانية من اينوس على بحر ايجه الى ميديا على البحر الاسود وان تكون ادرنه للبلغاريين . فقبل الاتراك ذلك مكرهين ورضوا باستقلال البانيا والتنازل عن كريت لليونان وتفويض امر الجزر للدول العظمى . وقررت الدول ان يعقد مؤتمر مالي في باريس ينظر في امر الغرامة المالية التي طلبها الاحلاف

وفي مقدار الدين الذي يجب عليهم ايفاؤه من الديون العثمانية بعد اخذ ما اخذوا من الولايات العثمانية الاوربية . ولما ذاعت شروط الصلح رأى بعض العثمانيين ان وزارة محمود شوكت باشا رضيت باثقل من الشروط التي رضيت بها وزارة كامل باشا وزاد الاستياء وصرع شوكت فتولى الصدارة الامير سعيد حليم باشا وكان الصلح الذي ابرم في ٣٠ مايو سنة ١٩١٣ بين تركيا ودول البلقان ختام مأساة او فاجعة من فاجعات التاريخ العثماني وبه طويت صحيفة ذل وعار لا ينساها العثمانيون ابد الدهر

ثم قام الخلاف فيما بين البلقانيين [١] فطلبت بلغاريا من اليونان ان تجلو عن سلانيك وتسلمها اليها فرفضت اليونان هذا الطلب وقالت انها لا تسلم سلانيك الا بالقوة كما أن سربيا احتلت مدناً تطمع فيها بلغاريا وزعمت صربيا انها اضطرت الى الرضى باستقلال البانيا لاسباب دولية وانها قامت باكثر مما يجب عليها في قتال العثمانيين وتحرشت رومانيا ببلغاريا وتهددتها اذا نشبت حرب بينها وبين حلفائها بالامس فلم تعبأ بلغاريا بالتهديد مع احاطة الاعداء بها من كل مكان وأقدمت على محاربتهن جميعاً ثم طلبت الصلح في ٣٠ يوليو وعقد مؤتمر بخارست الذي وضعت بموجبه خريطة البلقان على ما نعرفها قبل نشوب الحرب الاوربية العظمى

(١) انتهزت تركيا فرصة هذا الخلاف وزحفت جيوشها على تراقيه وادرنة وفازت باسترجاع ادرنة [illegible] حدود تراقيا [illegible]

خاتمة

تركيا والحرب العظمى

المسئلة الشرقية ومعاهدة سيفر

الاقدام على تدوين الحوادث مع قرب وقوعها ومن غير تفهم أسبابها المجهولة عمل ينبو عنه ذوق المؤرخ الذي يعرف لعمله قيمة . والحرب الكبرى حادثة على جلالة قدرها واتساع نطاقها وتعدد من اشترك فيها وخطورة نتائجها وروعة مشاهدها وتنوع ضحاياها وبالغ فتك آلاتها الجهنمية قريبة عهد بنا ولجزئيات حوادثها من الاسباب المكتومة والعلل المجهولة والظروف الخفية والدواعي الغامضة ما يجعل عمل المؤرخ المتسرع عملاً محفوفاً بالمخاطر مقروناً بالخطأ والخطل . ونحن نربأ بانفسنا عن أن نقع فيما تنهى غيرنا عنه وما قصدنا في هذه العجالة الا القاء نظرة عامة على تأثير تلك الكارثة الكبرى في المسئلة الشرقية ـ موضوع كتابنا

وأول ما يلاحظ انه لم يكن في مقدور الدولة العلية مطلقاً المحافظة على حيدتها . وكان لا بد لها عاجلاً أو آجلاً من دخول الحرب ـ كما حصل ـ مع احد الفريقين المتحاربين لان موقعها وسط القارات وعلى أهم بحور وبوغازات العالم مع ضعفها ضعفاً يقعد بها عن دعم الرأي الذي تراه بالقوة ثم مجاورتها لروسيا واملاك انكلترة وتأثرها بالسياسة الالمانية وخضوعها لالمانيا عسكرياً واقتصاداً كل ذلك كان يدفعها حتماً الى دخول غمار الحرب مضطرة لا مختارة وقد يركب المضطر الصعب من الامور وهو عالم بركوبه

أما وهو مسلم بانه كان لا بد من دخولها الحرب ـ وقد دخلت فعلاً ـ فقد وجب علينا ان نلم باسباب دخولها الى جانب المانيا دون انجلترة : ذكر الذاكرون ان المانيا كانت قد ارتبطت قبل نشوب الحرب الكبرى مع تركيا برباط معاهدة تقضي بدخول تركيا الحرب الى جانب المانيا فيما لو نشبت حرب بينها وبين احدى الدول . وانه كان لا بد لتركيا من احترام العهد الذي ارتبطت به خصوصاً وقد كان للالمان السيطرة على دوائر الاستانة العسكرية والسياسية . وذكر آخرون ان الالمان بذلوا رشوة لبعض الخونة من رجال الدولة وذوي التحكم في الرأي العام من أرباب الجرائد

حتى حملوا الناس على التشيع لالمانيا والتقرب منها ثم الانضمام لها . وقال آخرون مطلعون على حقائق الاخبار ان الترك غاظهم من الانكليز وضع يدهم على البارجتين العثمانيتين الكبيرتين اللتين أوصت حكومة الترك معامل انكلترة على صنعهما فلما اكتملتا وتسمت احداهما « رشادية » والاخرى « السلطان عثمان » نشبت الحرب فاخذتهما انكلترا دون ان تبتدرها تركيا بشر او تقابلها بمكروه فاسرع الالمان وعوضوا الترك خيراً منهما بارسال « جوبن » و« برسلو » مع اقراض مال وتقديم سلاح وذخيرة وارسال ضباط للتعليم والارشاد والاشراف والهيمنة وتقوية الحصون . فاحسان المانيا حيث اساءت انكلترة كان له أكبر أثر في تكييف سياسة تركيا قبيل الحرب . هذا الى ان موقف انكلترة في حرب طرابلس وحرب البلقان لم يكن موقف صديق معاضد بل موقف عدو شامت وكاره معاند . والى ان المانيا كانت قد اصطنعت في تركيا أصدقاء يجلونها ويحترمونها ويعنون لها ويأتمرون بأمرها مثل أنور وبعض شيعته من حزب الاتحاد والترقي ممن كانوا يبرهنون على حسن نية المانيا وخبث طوية انكلترة بما قدمنا من البراهين

وقد كان مفتتح الحرب في ٢٧ و ٢٩ اكتوبر سنة ١٩١٤ وفيهما اعتدت بعض السفن العثمانية على السفن والسواحل الروسية في البحر الاسود ـ هذه رواية الحلفاء . ورواية الاتراك انه قام لديهم الف دليل ودليل على أن السفن الروسية كانت تحمل الالغام لبثها في مياه البوسفور وانها كانت على نية ضرب السواحل العثمانية . فلما رأت انكلترة من تركيا ذلك أعلنتها الحرب في ٥ نوفمبر وتلا ذلك أمر ملكي بريطاني بضم جزيرة قبرص ثم دفع الروسيون الجيش التركي الذي سارع الى حربهم في القوقاز وتعقبوه الى الاناضول الشرقية (من نوفمبر الى ديسمبر سنة ١٩١٤) وارسل الانكليز جيشاً واسطولا على العراق (لافساد خطة الاتراك التى أملتها عليهم المانيا لتهديد طريق الهند) وبعد قتال طويل الامد عظيم النفقة كبير الجهد والمشقة وبعد أن سلم في ٢٨ ابريل في كوت الامارة الجنرال تونزند و ١٣ الفاً من جنده أتيح للانكليز بعد امداد الجيش ومغالبة العوائق من التقدم بقيادة الجنرال السير استانلي مود واجلاء الاترك عن العراق بعد أن استولوا على بغداد في ١١ مارس سنة ١٩١٧ وكسروا جيش احمد بك كسرة شنيعة . هذا الى أن جيشاً انكليزياً آخر صد الاتراك عن عبور قناة السويس بين ٢ و ٤ فبراير سنة ١٩١٥

وتعقبهم في شبه جزيرة سيناء ثم غزا فلسطين . ففي ٣١ سبتمبر سنة ١٩١٧ احتل بير سبع وفي ١١ ديسمبر دخل بيت المقدس وسار منها شمالاً يعضده الجيش العربي بقيادة سمو الامير فيصل يفتح البلاد ويتسلم المدن ويأسر الاسرى الكثيرة (بلغت جملة الاسرى العثمانيين الذين وقعوا لجيش الجنرال اللنبي لغاية ٢٥ سبتمبر سنة ١٩١٨ ٤٠ الفاً وجملة المدافع ٢٦٥) والجيش العثماني متقهقر وقد التوى عليه الامر وفقد منه النظام وسدت في وجهه المنافذ . فالروسيون من الشمال والانكليز من الشرق والعرب والانكليز من الجنوب والغرب واساطيل الحلفاء متحكمة في السواحل . هذا الى فساد الخطط الحربية وعداوة العرب وعوز القوت وقلة الذخائر وندرة طرق المواصلات كالسكك الحديدية خصوصاً (استفتح العرب حربهم مع الترك بتدمير سكة حديد الحجاز) وتفرق القلوب واختلاف الاهواء وتكاثر الاعداء على المانيا والنمسا فلم يكن بمقدورهما دفع الاعداء عن بلادهم فكيف ببلاد غيرهم . ذلك كان حال الجيش العثماني حينما نال الاعداء من تركيا في أربع سنين ما لم يتم لهم الحصول عليه في أربعة قرون

وقد جرى الاتراك قبيل الحرب (١٩١٣) على سياسة قبيحة نفرت منهم قلوب العرب وغيرهم سياسة دعوها « بني توران » أي توران الجديد ويمكن تعريفها بانها حركة يراد بها السير في جهة القومية التركية والابتعاد عن الاسلام وأغراضها الفصل بين القومية والدين وترقية الروح العسكرية وانشاء علاقات مع مسلمي ايران وتركستان وجنوب روسيا وتحرير اللغة التركية من الالفاظ العربية والفارسية . وقد كان اولى بالترك أن يجمعوا القلوب على محبتهم بمنح كل فريق نوعاً من الحكم الذاتي المعروف بالحكم اللامركزي وتأليف نظام سياسي تصير به السلطنة العثمانية أشبه الاشياء بجمهورية الولايات المتحدة الاميركية أو الامبراطورية الالمانية

وقد خسر الاتراك بدخولهم الحرب الى جانب المانيا خسائر مادية جسيمة (عبأوا ١٦٠٠٠٠٠ رجل مات منهم ٣٠٠٠٠٠ وجرح ٥٧٠٠٠٠ وتاه أو اسر ١٣٠٠٠٠ فالمجموع مليون رجل والخسارة ٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه) واقتطعت منهم أقاليم واستقلت امصار فقد استقل الارمن بالاناضول الشرقية والعرب بالحجاز بزعامة الملك الشريف حسين وصار أمر الشام ولبنان الى فرنسا والعراق كله

وفلسطين الى انكلترة ومحيت سيادة الترك على القطر المصري منذ ١٧ ديسمبر سنة ١٩١٤

أما خسائرهم الادبية فتنحصر في خروج الحجاز ومكة والمدينة والحرمين الشريفين الذين كثر ما افتخر سلاطين آل عثمان بين ملوك الاسلام بالقوامة عليهما هذا فضلاً عن ضياع فلسطين وبيت المقدس اللذين تحكم فيهما الجنس التركي رغم أنف اوربا من العصور الوسطى الى ان دخلها الجنرال اللنبي ظهر ١١ ديسمبر سنة ١٩١٧

وقد حلت المسئلة الشرقيـة حلاً نهائياً تاماً بدعوة الاتراك الى امضاء شروط معاهدة سيفر في الساعة الرابعة والدقيقة ١٠ من يوم ١٠ اغسطس سـنة ١٩٢٠ اذ قررت هـذه المعاهدة فيما قررت أن لا يكون مفتاح البوغازين بيد الاتراك وان تكون جيوشهم وماليتهم تحت رقابة اوربا وان يسلموا بخروج ما خرج من أيديهم من الامم والاقاليم والبقاع وأن لا يكون لهم غير الاناضول التركي مع بقاء الخليفة في الاستانة مرهوناً بحسن سلوك تركيا في المستقبل

غير أن الله سبحانه وتعالى أراد أن لا يكون حل المسئلة الشرقية من حوادث هذا الجيل ونظر الى الاتراك نظرة عطف وحنان فحدث من الحوادث قبيـل وبعد امضاء معاهدة سيفر ما اذن بتأخير حل المسئلة الشرقية واحياء آمال الامة التركية

وبيان ذلك ـ وهو من أعجب ما رواه التاريخ ـ ان روسيا التي جـدت في اضعاف تركيا واقتطاع أرضها والاعتداء عليها قروناً عديدة وكان حل المسئلة الشرقية مرهوناً بها صارت فريسة ثورة اجتماعية شيوعية أثارها قوم يعرفون بالباشفيين يدينون بحرب أرباب الاموال والاستعماريين ونصرة العمال « وصعاليـك العالم » فهؤلاء الشيوعيون بعد ان تم لهم استلام مقاليد الاحكام نفضوا ايديهم مما ارتبطت به الحـكومة القيصرية وحكومة المعتدلين التي قامت في أثرها برئاسة كرنسكي وانقلبوا على الحلفاء ثم ناصروا اتراك الاناضول الذين هبوا لتعديل معاهدة سيفر بقوة السلاح . فروسيا التي جدت قديماً في حل المسئلة الشرقية هي الدولة الاوربية الوحيدة التي تعضد الترك في الغاء معاهدة سيفر اعتقاداً منها بان معاهدة سيفر معاهدة أملتها المبادىء الاستعمارية لاخراج ارض ومياه تركية من الحـكم التركي

وخير ما نختم به هذه العجالة كلمة عن النهضة التركية الاناضولية التي قام بها مصطفى كمال باشا لنقض معاهدة سيفر

« لما استقر مصطفى كمال في الاناضول أدرك وجوب لم شعثه وتنظيم جيشه فعمل على ذلك وظل يرقب الحوادث في الاستانة ليرى ما تؤول اليه الحال . فلما تألفت وزارة المشير عزت باشا الاولى عقب الهدنة قصد الاستانة وأقام فيها مدة وجيزة ثم عين مفتشاً لجيش الاناضول . فوافق هذا التعيين هوىً من نفسه اذ أتاح له اتمام ما كان قد شرع فيه • فبرح الاستانة واتخذ ارضروم مقراً له وأخذ يبذل عنايته في تنظيم الجيش وأنشأ مستودعاً للاسلحة وترسانة لاصلاح ما تعطل منها وضم اليه نخبة من الضباط العثمانيين الذين بقوا في الاناضول بعد عقد الهدنة أو جاؤوا من الاستانة بعد احتلال الحلفاء لها

« ثم ان الحلفاء لم يلبثوا ان حلوا المجلسين النيابيين في الاستانة واتخذوا سياسة الضغط والعنف مع الاتراك فكان من جراء ذلك ان هجر فروق صفوة رجالهم ومفكريهم والتفوا حول مصطفى كمال فاشتد بهم ساعده والف في انقره حكومة وطنية تمثل الشعب التركي تمثيلاً حقيقياً وتعبر عن أمانيه ورغائبه بخلاف حكومة الاستانة التي كانت صورة لا حياة لها . وقد حدد المجلس العمومي في انقره الخطة التي يجب على مصطفى كمال ورجاله اتباعها لتخليص الشعب التركي واسترداد كرامته في جلسة عقدت ٢٩ ابريل سنة ١٩٢٠ وهي تتلخص في استماتة الامة التركية في الدفاع عن حقوقها وجلاء الفرنسيين واليونان عن الاراضي التركية والغاء رقابة الحلفاء المالية والحربية

« ولما رأى مصطفى كمال ما يكتنفه من الخطر وهو يقاوم وحده عدة دول كبيرة رضي أن يستعين بحكومة روسيا السوفيتية فعقد محالفة مع لنين لعلها كانت من أهم الاسباب التي اضطرت الحلفاء الى الرجوع عن خططهم الاولى تجاه الشعب التركي

« وقد بذل مصطفى كمال جهده لتحقيق الاماني التركية فما برح النصر حليفه يزيده قوة ويزيد مركزه توطيداً حتى اضطرت حكومة الاستانة الى الاعتراف به وتسليمه الزعامة الفعلية في ما دار مع الحلفاء من المفاوضات

« وقد أدرك الحلفاء ـ ولولا قيام مصطفى كمال ما ادركوا ـ ان معاهدة سيفر لم تكن قائمة على أسس العدل والانصاف فارادوا تنقيحها فعقدوا مؤتمراً في لندن واقترحوا على تركيا واليونان اقتراحات معينة ولكن اليونان ابوا العمل بها وارادو تحكيم السيف كما يعلم القراء » (عن الهلال)

فهرس الكتاب